

الفصل الثالث

أصول التفسير عند السيدة عائشة وخصائصه

تمهيد:

لم يكن للصحابة رضوان الله عليهم نشاط تفسيري ملحوظ فى عهد النبوة ويرجع ذلك إلى الأسباب الآتية:

١- وجود النبى ﷺ ذاته بين المسلمين، وقيامه لهم بمهمة التفسير، فكما كان الرسول ﷺ مكلفاً بإبلاغ الرسالة، كان أيضاً مكلفاً بتفسير هذه الرسالة للناس، وهذا المعنى يلحظ بوضوح فى قوله تعالى: ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ (١)، وقوله عز وجل: ﴿وانزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ (٢). ولذا كان المسلمون يهرعون إلى النبى ﷺ يسألونه ويستفسرون منه عما يغمض أو يستشكل عليهم فهمه من آيات القرآن ومعانيه.

٢- كان الصحابة وعامة المسلمين معاشين لأحداث الدعوة الإسلامية ومشاركين فيها، كما كانوا متابعين للتزليل وأسبابه وتطوراته، الأمر الذى جعلهم - غالباً - على إحاطة كاملة به تقريباً. صحيح كان هناك من يضطر منهم إلى الابتعاد قليلاً عن مسرح الأحداث سعياً وراء رزقه ومتابعة لأشغاله، ولكنه كان ينبى عنه من أصدقائه أو جيرانه أو إخوانه فى الدين من يلازم النبى ﷺ ومجالسه، حتى إذا فرغ الأول من أعماله أتى أخاه فروى له كل ما سمعه وشاهده من رسول الله ﷺ، وفى ذلك يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد - وهى من عوالى المدينة - وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك» (٣). ولم تكن

(١) سورة التور / ٥٤

(٢) سورة النحل / ٤٤

(٣) البخارى ١ / ٨٢ / ٨٥

النساء بأقل من الرجال في ذلك حرصاً واهتماماً، فقد طلبن من النبي ﷺ أن يخصص لهن يوماً معيناً يلقاهن فيه فيحدثهن ويعلمهن ويحسب عن أسئلتهن، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن» (١).

٣ - لقد نزل القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿قرآنا عربياً﴾ (٢). وكما قال تعالى أيضاً: ﴿بلسان عربى مبين﴾ (٣)، ومعنى هذا أن المسلمين حينئذ كانوا يفهمون لغة القرآن الكريم بوضوح ويسر، وذلك لأنه نزل بلغتهم لكي يفهموه بسهولة كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ (٤)، وإذا لم يكن هناك داع إلى تفسير كل القرآن الكريم لغويا وذلك بصفة عامة. صحيح أن هناك بعض الكلمات القرآنية الصعبة التي خفيت على بعض الصحابة، مثل كلمة «أب» في قوله تعالى: ﴿وفاكهة وأبا﴾ (٥)، وكلمة «التخوف» في قوله تعالى: ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾ (٦) اللتين غمضتا على عمر ابن الخطاب، وكلمة «فاطر» في قوله تعالى: ﴿فاطر السموات﴾ (٧) التي لم يكن ابن عباس يعرفها (٨)، ولكن وجود بضعة كلمات خفي معناها الدلالي لم يؤد إلى قيام حركة لغوية للتفسير بالمعنى العلمي.

٤- والأمر لا يختلف بالنسبة لأسلوب القرآن وبلاغته، فقد كان المسلمون في ذلك الوقت يدركون مراميهِ وأهدافه، بحكم معاصرتهُم للتنزيل ومتابعتهم له، وبحكم فهمهم لغة القرآن وموضوعاته، وإذا كانت معجزة القرآن الكريم معجزة بيانية أولاً، وكان هذا

(١) البخارى ١ / ٩٠ / ٩٧

(٢) سورة يوسف / ٢

(٣) سورة الشعراء / ١٩٥

(٤) سورة إبراهيم / ٤

(٥) سورة عبس / ٣١، وانظر في هذا الخبر: تفسير ابن كثير ١ / ١٦

(٦) سورة النحل / ٤٧، وانظر في هذا الخبر: الموافقات ٢ / ٦١

(٧) سورة فاطر / ١

(٨) الالتقان ١ / ١١٣

الإعجاز يمثل تحديا بلاغيا عظيما للعرب، فمعنى هذا أنهم كانوا - على الأقل - يفهمون بلاغة القرآن فهما واضحا، وأنهم كانوا مدركين لأساليبه ووجوهه البيانية. . صحيح كانت هناك بعض الأساليب والصور القرآنية التي خفيت على بعض الصحابة، مثل عدى بن حاتم الذى استشكل عليه معنى الخيط الأبيض والخيط الأسود فى قوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ (١)، لدرجة أنه وضع تحت وسادته حبلين أحدهما أسود والآخر أبيض، حتى أوضح له الرسول ﷺ «أنهما بياض النهار وسواد الليل» (٢). ولكن مثل هذه المواقف كانت نادرة جداً، ولا تكاد تتعدى أصابع اليد الواحدة.

٥- هناك حقيقة بسيطة، وهى أن القرآن الكريم لم يكن قد تم نزوله إلا قبيل وفاة النبى ﷺ بأيام قليلة، ولقد كان القرآن الكريم ينزل منجما مفرقا، حسب الأسباب والمناسبات المختلفة، ومتدرجا حسب الخطوات التشريعية المنشودة، وطبعى أن لا تقوم حركة علمية للتفسير حول كتاب لم يكن قد تم بعد.

٦- نزل القرآن الكريم فى أمة أمية، ولم تكن لها حضارة بالمعنى العلمى المفهوم لكلمة حضارة، ولم تكن تملك أسباب تعويد العلوم وتقنينها، لذا فمن الصعب القول بأن المسلمين فى عهد النبوة كانوا ينظرون إلى تفسير القرآن الكريم كما نظر إليه العلماء فيما بعد فى عصر التعويد.

هذه هى أهم الأسباب التى أدت إلى عدم وجود حركة تفسيرية نشطة للصحابة فى عهد النبوة. على أنه ينبغى أن تفهم هذه الأسباب على حقيقتها الطبيعية من أنها على غالب الأمر وليست على قطعيته، فالرسول ﷺ لم يفسر القرآن الكريم كله، كما لم يقتصر تفسيره على بضعة آيات قليلة فقط، وإنما فسر ما أحس أنه محتاج إلى التوضيح، أو ما طلب منه تفسيره، كذلك لم يكن المسلمون كلهم متابعين بدقة لحركة الوحي،

(١) سورة البقرة/ ١٨٧

(٢) مسلم ٧/ ٢٠٠

بدليل أننا وجدنا من الصحابة أنفسهم من لم يصل إلى علمه بعض النواسخ وخاصة التي كانت في أواخر أيام النبي ﷺ، كما وجدنا منهم أيضاً من لم يقف على سبب النزول الحقيقي، مثل قدامة بن مظعون، الذي شرب الخمر بل واستحلها، وذلك لأنه اعتمد على قوله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا وأحسنوا﴾^(١)، وفهم أن هذه الآية رخصة له لأنه من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ومن شهد مع الرسول ﷺ غزواته وكافح معه^(٢)، ولكنه لم يعلم سبب نزول هذه الآية حتى يقف على تفسيرها الحقيقي، فعندما نزل تحريم الخمر تخوف المسلمون على من استشهد منهم قبل نزول التحريم وكان يشرب، فأنزل الله هذه الآية «عذراً للماضين وحجة على الباقيين».

ولكن الأوضاع اختلفت وتغيرت الظروف بعد وفاة النبي ﷺ، فبعد أن لم تكن هناك حاجة تدعو إلى قيام حركة تفسيرية للقرآن الكريم في العهد النبوي، أصبحت الحاجة ملحة إلى ذلك بعد انتهاء هذا العهد. وكان ذلك لأسباب منها:

- الفتوح الإسلامية: التي نشرت نور الإسلام في بلاد كثيرة من العالم حيثئذ، إذ تم في عهد عمر بن الخطاب فتح العراق وفارس والشام ومصر، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية اتساعاً شديداً، ودخل في الإسلام أغلب سكان البلاد المفتوحة الذين اشتدت رغبتهم في تعلم الدين الجديد ودراسته وتفسير آياته، وتفهم معانيه، ومعرفة أحكامه وتشريعاته. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كثرت المسائل الفقهية وتعددت وتنوعت واختلفت، وذلك تبعاً لكثرة المشاكل التي نتجت عما أسفرت عنه الفتوح من المواجهة الحتمية بين أحوال أهل البلاد المفتوحة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأخلاقية وبين النظم والمبادئ الإسلامية، وكان على الصحابة رضوان الله عليهم أن يواجهوا هذه الأعباء الجديدة، بعد أن تسلموا لواء الإسلام بعد النبي ﷺ.

(١) سورة المائدة/ ٩٣.

(٢) الإصابة، ترجمة قدامة بن مظعون.

- ظهور الجيل الجديد من أبناء الصحابة الذي كان قد نما وزها، وكان على الصحابة أن يعلموا أبناءهم أصول الإسلام وقواعده، بل كان عليهم أن يعطوهم كل علمهم حتى يمكن لهم أن ينقلوه إلى الجيل التالي لهم، وهكذا تنتقل العلوم الإسلامية من جيل إلى جيل، ويظل لواء الإسلام عالياً خفاقاً إلى يوم القيامة.

أصبحت الحاجة إذاً ضرورية وملحة تدعو إلى قيام حركة تفسيرية جادة لمواجهة تحديات العصر الجديد ولكن جو التهيب من التفسير كان يسيطر على عهد الصحابة، وكان أغلب الصحابة يتورعون عن تفسير القرآن ويعظمونه ويشفقون من القول فيه ويعبر أبو بكر الصديق عن ذلك الموقف العام تعبيراً قوياً صادقاً بلغ فيه الجزع من التفسير مداه في كلمته الباقية: «أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى، وأين أذهب، وكيف أصنع إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى»^(١).

وكان السبب الرئيسى فى تهيب الصحابة وتورعهم، تلك الأحاديث التى وردت عن رسول الله ﷺ فى قضية التفسير، وقد أحدثت دويماً هائلاً مازال يتردد صداه حتى اليوم، وهى أحاديث تحرم تحريماً قاطعاً تفسير القرآن بمجرد رأى أو بغير علم، وتهدد مرتكب ذلك بأقسى العقاب، ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ: «من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»^(٢)، فهذا الحديث يحتم أن يقوم التفسير على العلم، ويحذر من الخوض فيه بغير علم لأنه سيكون حينئذ ضرباً من العبث والفساد، كما يدعو هذا الحديث أيضاً إلى التردد العنيف عند التصدى للتفسير، حول ماهية هذا العلم الذى يستخدم للتفسير ونوعيته، ومدى الثقة فيه، وقيمة النتائج التى يمكن الوصول إليها عن طريقه.

ومن هذه الأحاديث أيضاً قوله ﷺ: «من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»^(٣). وهو حديث يقطع أى سبيل أمام من يجرؤ على التعرض لكتاب الله برأيه

(١) تفسير القرطبي ٣٤/١

(٢) الترمذى ٢٧٧/٨ - ٢٧٨، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) الترمذى ٢٧٨/٨

حتى ولو أصاب، وذلك لأن الرأى هنا قد يكون مبنياً على الهوى الشخصى أو الجهل أو التوهم أو التعامل أو التخرص، وكل ذلك له نتائج الوخيمة، ولذلك حذر منه النبى ﷺ تحذيراً شديداً. وعلى الرغم من صحة فحوى هذه الأحاديث - وإن شك البعض فى صحة مبناها وقدح فيها(١) - إلا أنها خلقت جواً متوتراً رهيباً حول تفسير القرآن مازال مسيطراً حتى اليوم، فما بالسنا إذاً بالصحابة الورعين المتقين. وربما كان هذا هو سبب القلة التفسيرية فى الآثار المتبقية من مفسرى الصحابة، فأجود الطرق المؤدية إلى تفسير ابن عباس وأكثرها رواية هو طريق ابن أبى طلحة، الذى يبلغ عدد رواياته ألف وثلاثمائة رواية، حسب ما جاء فى أحدث دراسة علمية عن تفسير ابن عباس(٢)، وبالطبع، فإن هذا العدد ضئيل جداً بالنسبة لعدد آيات القرآن الكريم، وكذلك الحال فى تفسير ابن مسعود الذى جمع وحقق حديثاً، وقد ضم ألفاً وثلاثمائة وواحد وأربعين أثراً لابن مسعود، ولكن هذا العدد لا يهمننا، وإنما الذى يهمننا منه هو عدد الآثار المسندة أولاً، ثم درجة صحتها ثانياً، وقد بلغ عدد الآثار المسندة سبعمائة واثنين وسبعين أثراً، أما الصحيح منها فهو لا يزيد عن النصف تقريباً(٣).

الطابع الفقهي لتفسير السيدة عائشة.

لما كان من الضرورى أن تقوم حركة تفسيرية جادة لمواجهة متطلبات عصر الصحابة واحتياجاته، لزم أن تكون ذات طبيعة فقهية فى المقام الأول لكى تحل المشكلات الحياتية التى تتحكم فى معاش الناس ومصالحهم، لذلك احتل الفقه المكانة الأولى عند الصحابة، وفى الوقت الذى لم يزد فيه عدد الصحابة المفسرين على أصابع اليدين(٤)، بلغ عدد الصحابة الفقهاء الذين حفظت عنهم الفتوى مائة ونيف وثلاثين(٥)، وبينما

(١) تفسير القرطبي ٣٢/١

(٢) تفسير تنوير المقباس ص ١٧٩

(٣) تفسير ابن مسعود ص ٧٨ من الدراسة.

(٤) الاتقان ٢٣٣/٤

(٥) اعلام الموقعين ١٢/١

كانت ظاهرة القلة التفسيرية ملحوظة فيما أثر عن الصحابة المفسرين، فقد وصلتنا عن الصحابة الفقهاء ثروة فقهية عظيمة، حتى لقد قال ابن حزم إنه «يمكن أن نجمع من فتوى كل واحد منهم سفيراً ضخماً» وقال: «وقد جمع أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب ابن أمير المؤمنين المأمون فتياً عبد الله بن عباس في عشرين كتاباً»^(١)، وليس هذا أمراً غريباً، ففي العصر الحديث قام الدكتور محمد رواس قلعة جى بجمع موسوعات فقهية ضخمة لبعض الصحابة، وأخرج بالفعل موسوعة فقه ابن مسعود، وموسوعة فقه عمر بن الخطاب، وموسوعة فقه على بن أبي طالب.

والملاحظ أن فقه الصحابة كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالنصوص القرآنية، الأمر الذي يجعل من الممكن القول بأن التفسير نشأ أولاً نشأة فقهية، أو بعبارة أخرى كان التفسير الفقهى هو أول مدارس التفسير ظهوراً إلى الحياة، وكان ذلك على أيدي الصحابة رضوان الله عليهم.

ولقد كان الطابع الفقهى هو الطابع العام والأساسى لتفسير السيدة عائشة، ولقد كانت عالمة بالفقه ومبرزة فيه، قال عروة بن الزبير: «ما رأيت أحداً أعلم بالقرآن ولا بفرائضه ولا بحلال ولا بحرام من عائشة»^(٢)، وقال عطاء بن أبي رباح: «كانت عائشة أفقه الناس»^(٣)، وقدمها ابن حزم على سائر الصحابة الذين رويت عنهم الفتاوى^(٤).

ويجب أن نشير في هذا الصدد إلى أن الحديث القائل: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» حديث موضوع، وقد جرح كثير من المحدثين روايته، والسبب في ذلك يرجع إلى أن هذا الحديث - في مبناه اللغوى - يوهم أو يوحي بأن السيدة عائشة كانت مشرعة، وأن علينا أن نأخذ عنها وما كان لها أو لغيرها ذلك أبداً، فالمشروع الأوحى في الدين الإسلامى هو الله وحده لا شريك له، والسيدة عائشة ما هى إلا مجرد راوية

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) السط الثمين ٨٦

(٣) سير النبلاء ٦٩

(٤) الاجابة ٥٩

للحديث من ناحية، ومجتهدة فى بعض المسائل الفقهية من ناحية أخرى، وكل ما فى الأمر أنها أكثرت من الرواية ومن الاجتهاد القائم على الأصول الشرعية، فوضع فى فضلها هذ الحديث ليدل على كثرة ما روته وما اجتهدت فيه وما حمل عنها من ذلك، فهو عبارة عن استقراء من الواضع لآثارها الغزيرة فى الرواية والاجتهاد، وضعه لينبه به على مكانتها العلمية الكبيرة، وهو يساوى قول الحاكم فى فضلها: «فحمل عنها ربع الشريعة»^(١).

ويتمثل هذا الطابع الفقهى لتفسير السيدة عائشة فى تلك المسائل الفقهية الوفيرة والمتنوعة التى تناولتها، وأجوبتها السديدة عن تلك المسائل بما يكشف عن رسوخ علمها، فهذا أبو هريرة يسألها عن المرأة تغتسل، أنتقض شعرها؟^(٢) ويسألها أبو موسى الأشعري عما يوجب الغسل: الدفق أم المخالطة؟^(٣) كما يسألها أيضا عن الرجل الذى يصيب أهله ثم يكسل ولا ينزل: هل عليه غسل؟^(٤)، ويسألها عبد الله بن عمر هل يياشر الرجل امرأته وهى حائض؟^(٥) ويسألها مسروق وميمون بن مهران عما يحل للرجل من امرأته وهى حائض؟^(٦) ويسألها شريح بن هانئ: هل تأكل المرأة مع زوجها وهى حائض؟^(٧) وتسألها معاذة العدوية: ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة؟^(٨). ويسألها ابن أبى مليكة عن متعة النساء؟^(٩) وسعد بن هشام بن عامر عن التبتل^(١٠)، وثمامة بن حزن القشيري عن النبيذ^(١١)، وهنيدة بنت شريك عن العكر^(١٢)... إلخ.

(١) المصدر السابق نفسه

(٢) الدارمى ٢٦٢/١

(٣) مسلم ٤٠/٤ - ٤٢

(٤) مالك - رواية يحيى - ٤٦

(٥) مالك - رواية محمد بن الحسن - ٤٩

(٦) الدارمى ٢٤٢/١، عبد الرزاق ٣٢٧/١ - ٣٢٨/٣٢٨ - ١٢٦٠

(٧) النسائي ١٤٨/١ - ١٤٩

(٨) مسلم ٢٧/٤ - ٢٨

(٩) الحاكم ٣٩٣/٢

(١٠) النسائي ٦٠/٦، أحمد ٩٦/٦

(١١) البخارى ٢٠١/١ - ٢٦٩

(١٢) النسائي ٣٠٧/٨

ويلفت النظر هنا أن أغلبية المسائل الفقهية التي أجابت عنها السيدة عائشة وعالجتها في تفسيرها تختص بالمرأة والقضايا المتصلة بها، مثل الطهارة من الحيض والجنابة، والجماع والزواج والطلاق والإيلاء والرضاعة وما إلى ذلك. . حتى أنه يمكننا القول بأن التفسير الفقهي للسيدة عائشة تفسير يعنى بأمر النساء الدينية في الدرجة الأولى.

والسيدة عائشة في تفسيرها الذى تتعرض فيه لقضايا المرأة بارعة جداً فى تناول الموضوع الذى تعالجه، فهى تحيط به من جميع جوانبه، وتعالج كافة مشكلاته، حتى الدقيقة منها والحساسة، وتستعين فى سبيل ذلك فى المقام الأول بخبرتها الزوجية مع رسول الله ﷺ، وتمكنها القوى من مادتها العلمية، وبراعتها الفذة فى التعبير عما تريد فى أدب ووضوح، حتى لتستحق بجدارة أن نطلق عليها لقب «السفيرة النبوية الأولى إلى عالم النساء»، فهى التى تقوم بشرح أحكام الدين لهن وإجابة ما يجول بأذهانهن من أسئلة خاصة بهن، بعد أن هياها الرسول ﷺ لذلك وعلمها واعتمد عليها اعتماداً كبيراً.

ففى موضوع الحيض مثلاً، نجد السيدة عائشة وقد تناولت الموضوع تناولاً وافياً وهى تفسر قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ الآية (١)، فاجابت عن الكثير من الأسئلة الهامة الحساسة المتعلقة بهذا الموضوع من مثل: هل يجوز أن يباشر الرجل امرأته وهى حائض؟ وهلى يعتزلها ولا يعايشها؟ أم يجوز له ذلك؟ وهل يمكن أن تصلى المستحاضة؟ وماذا تفعل الحامل إذا رأت الدم؟ وما علامة البرء من الحيضة؟ وما السنة فى غسل المرأة من الحيضة؟ وكيف يظهر الثوب الذى أصابه الدم؟ وما إلى ذلك من أسئلة.

أجابت السيدة عائشة عن هذه الأسئلة وغيرها إجابات نلحظ فيها الصراحة والقطع، فهى ليست إجابات غير مباشرة أو غامضة، كما نلحظ فيها أيضاً خير شاهد على مدى تمكن السيدة عائشة من المادة العلمية، وقدرتها على التعبير عن هذه المسائل الحرجة بأسلوب مبسط مهذب، يجمع بين الوضوح والحياء، فهى تقرر أن الرجل يمكن أن يباشر امرأته وهى حائض، ولكن المباشرة لا تكون إلا على ما فوق الإزار فقط، أما مباشرة

الحائض فى الفرج فحرام^(١)، ومعنى هذا أنها تفسر قوله تعالى : ﴿فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ أى اعتزلوا مباشرتهن فى محل المحيض أثناء فترة الحيض، ولا تقربوهن فى هذا المكان حتى يطهرن أما معايشة الحائض، فليس فيها أى شىء، إذ يمكن للزوج أن ينام مع زوجه الحائض، وأن يضطجع معها فى لحاف واحد بشرط أن يكون هناك حائل يمنع الدم^(٢)، ويمكن له أيضا أن يؤاكلها ويشاربها ويضع فمه على موضع فمها من القدح^(٣)، بل يجوز أن تغسل رأسه وترجله وتناوله سجادة الصلاة حتى وهو معتكف فى المسجد^(٤)، وأكثر من ذلك يجوز له أن يتكىء فى حجرها ويقرأ القرآن، وهو بقرب موضع الدم^(٥).

وأوضحت السيدة عائشة أيضا أن المستحاضة تصلى ولا تدع الصلاة، ويكون ذلك عن طريق أن تقطع من الشهر بضعة أيام - على حسب عاداتها - تعدها أيام حيضتها، ثم تعد باقى أيام الشهر استحاضة، فلا تصلى فى أيام حيضتها، وإنما تصلى فى أيام استحاضتها، فتغتسل بعد انتهاء أيام الحيض الاعتبارية غسلا واحداً ثم تتوضأ لكل صلاة^(٦)، أو تغتسل لكل صلاتين تجمعهما^(٧)، وذلك حسب جهدها وحالة استحاضتها وطاقتها فى التحرز. وكذلك الحامل، لا تدع الصلاة إن رأت دما، لأن الحامل لا تحيض، وما قد تراه دما فهو ليس بحيض، فتغتسل منه وتصلى^(٨). وبينت السيدة عائشة أن علامة البرء من الحيض انقطاع الدم، وذهابه نهائيا، وظهور الطهر أبيض كالفضة، فتغتسل وتصلى^(٩). كما بينت أيضا أن السنة فى حق المغتسلة من الحيض أن تأخذ شيئا

(١) مالك - رواية محمد بن الحسن - ٤٩، الدارمى ٢٤٢/١، عبد الرزاق ٣٢٧/١ - ٣٢٨ / ١٢٦٠

(٢) مالك - رواية يحيى - ٥٨

(٣) النسائى ١٤٨/١ - ١٤٩

(٤) البخارى ٣٦٥/٣ - ٣٦٦/٣٦٦، ١٨٣٢/٣٦٦، ١٨٣٠/٢٦٥/٣، مسلم ٣/٢٠٩

(٥) البخارى ٢٠٨/١ - ٢٨٠

(٦) عبد الرزاق ٣٠٤/١ - ١١٧٠

(٧) أبو داود ٤٨٨/١

(٨) عبد الرزاق ٣١٧/١ - ١٢١٤

(٩) الدارمى ٢١٤/١

من الطيب فتجعله فى قطنة أو خرقة أو نحوها، وتدخلها فى فرجها بعد اغتسالها، وذلك لتطيب المحل وإزالة الرائحة الكريهة^(١). أما تطهير الثوب مما قد يصيبه من دم الحيض فيكون بحك الدم بأى شىء صلب^(٢)، حتى ولو بالظفر^(٣)، ثم رش مكانه فقط بالماء^(٤)، أو غسل الثوب كله إذا لزم الأمر^(٥)، وهكذا يصبح طاهراً حتى وإن بقى فيه أثر الدم باهتا^(٦)، أما إذا كان الأثر واضحاً بشدة، فيمكن أن تصبغه فتغطفى بلون الصبغ على هذا الأثر^(٧).

هذا مثال يوضح لنا طريقة السيدة عائشة فى تناول الموضوع، واستيفائها لجميع عناصره، ولاشك أنها تعتمد فى ذلك اعتماداً أساسياً على خبرتها العملية التى اكتسبتها خلال حياتها الزوجية مع رسول الله ﷺ، والمواقف التى عاينتها حين كانت النساء المسلمات تسأله ﷺ وتستفتيه.

أصول التفسير عند السيدة عائشة:

لاشك أن لكل تفسير أصوله الخاصة التى يعتمد عليها، والتى تميزه عن غيره من التفاسير الأخرى، وهذه المصادر تخضع فى طبيعتها وقوتها إلى عوامل عديدة منها ظروف العصر السياسية والاقتصادية والفكرية، وثقافة المفسر ومناهله العلمية ومزاجه الفكرى ومواهبه الذاتية وغير ذلك.

وإذا حاولنا أن نتعرف على أصول تفسير السيدة عائشة التى أقامت عليها فكرها التفسيرى، وجدنا أن هذه الأصول هى:

-
- (١) مسلم ٥/٤ - ١٦
 - (٢) عبد الرزاق ١/٣٢٠ - ١٢٢٨
 - (٣) البخارى ١/٢١٥
 - (٤) عبد الرزاق ١/٣٢٠ - ١٢٢٨
 - (٥) البخارى ١/٢١٤
 - (٦) الدارمى ١/٢٣٨
 - (٧) المصدر السابق نفسه.

١- السنة النبوية .

٢- أسباب النزول .

٣- الحس اللغوى والأدبى .

٤- الاجتهاد الشخصى

لقد كانت السيدة عائشة تفسر القرآن الكريم عن طريق الاستعانة بالسنة النبوية الشريفة، أو تفسره تفسيراً تاريخياً عن طريق استخدام أسباب النزول، أو تفسره تفسيراً لغوياً أو أدبياً يقوم على امتلاكها القدير لخاصية اللغة والبيان، وإدراكها القوى الحساس لأسرار اللغة والبلاغة، أو تفسره باجتهادها الفكرى الخاص .

وفيما يلى عرض ودراسة لهذه المصادر

١- التفسير بالسنة النبوية:

لقد كان من الطبعى أن يقوم فقه الصحابة على دعامتين أساسيتين: هما القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة؛ فالقرآن الكريم هو كتاب الله العزيز الذى أنزله لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، والسنة النبوية مفسرة وموضحة لكثير مما فى القرآن الكريم من أحكام وتشريعات، ويعبر عن ذلك أقوى تعبير قول ابن عمر رضى الله عنه: «العلم ثلاث: كتاب الله الناطق، وسنة ماضية، ولا أدري»^(١). فعلم الصحابة كان يعتمد على القرآن أولاً، ثم السنة ثانياً، ثم عدم الخوض بغير علم والاعتراف الجليل الصريح بذلك ثالثاً. وبناء على ذلك، فإننا إذا كنا قد قلنا إن التفسير نشأ أول الأمر نشأة فقهية نقول هنا إنه نشأ هذه النشأة مرتبطاً بالسنة النبوية ارتباطاً وثيقاً.

وتعد السيدة عائشة رضى الله عنها من أغزر الصحابة رواية عن رسول الله ﷺ، وقد عدَّ لها ابن الجوزى ألفين ومائتين وعشرة أحاديث نبوية شريفة روتها^(٢)، وقد

(١) اعلام الموقعين ١/٥٩

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٨٤

اعتمد(١) ابن الجوزى فى تعداده ذلك على ما ورد لها فى مسند أبى عبد الرحمن بقى بن مخلد، المتوفى عام ٢٩٦ هـ، وهو من أقدم مصادر السنة ولكنه فقد(١)، ولا يوجد الآن إلا مسند أحمد بن حنبل الذى يعد من أكثر الكتب التى بين أيدينا جمعا واستيعابا للأحاديث. وهذه الأعداد التى ذكرها عن أحاديث الصحابة أعداد تقريبية، وذلك لاختلاف طريقة العد من عالم لآخر، فقد يجمع البعض الحديث الواحد على مكرراته فيكثر العدد وهو فى الحقيقة حديث واحد، كما قد يحسب البعض تعدد الطرق تعددا للحديث الواحد، وأحيانا يتجزأ الحديث الواحد إلى عدة أجزاء تبعاً لطرق التصنيف الفقهي كما فعل البخارى مثلاً فى صحيحه، ومن هنا قد يظن البعض الحديث الواحد أكثر من حديث، وكذلك نجد بعض الأحاديث يشترك فى روايتها أكثر من صحابى فيتكرر حساب الحديث فى مسانيد عدة صحابة وهكذا.

وقد وجدت بالاستقراء أن عدد الأحاديث النبوية الشريفة التى روتها السيدة عائشة عن النبى ﷺ لا يزيد على الألف حديث، كما وجدت أن ما يتصل بال تفسير اتصالاً مباشراً فى حدود الثلث منها، أما الباقى فهو فى موضوعات متفرقة يصعب وضعها تحت آيات واعتبارها تفسيراً لها. ومهما يكن من أمر هذه الملحوظة، فإن الذى يهمنا هو أن السيدة عائشة تكثرت من استخدام السنة النبوية فى تفسيرها - وبخاصة السنة العملية - وتعتمد عليها اعتماداً أساسياً، لأنها الطريق المأمون لبيان معانى القرآن الكريم، فقد كانت على علم وافر بسنة رسول الله ﷺ، وكانت على معرفة كاملة بالنبى ﷺ رسولا وإنسانا، وساعدها ذلك بيسر على أن تتخذ من سنته الشريفة أداة قيمة لتفسير القرآن.

(١) يعد كتاب بقى بن مخلد من أهم مصادر الحديث، وقد روى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيف، ورتب أحاديث كل صحابى على أبواب الفقه، فهو مسند ومصنف فى نفس الوقت، وليست هذه الرتبة لأحد قبله فيما نعلم. وانظر فى وصف هذا الكتاب (نفع الطيب ١/٥٨١، ٢/١٣١).

لقد عاشت السيدة عائشة رضی الله عنها تسع سنوات في بيت النبوة، وكانت على قرب شديد من رسول الله ﷺ، فلم تكن مجرد زوجته فحسب، وإنما كانت أحب الناس إليه، حتى أنه ليستل من أحب الناس إليك؟ فيجيب دون تردد: «عائشة» (١). وهذا الأمر مكنها من الإحاطة بالسنة النبوية الشريفة وموضوعاتها ومسائلها وألفاظها ومعانيها، وناسخها ومنسوخها، وأسرارها وفلسفتها، وما إلى ذلك. ولقد عاشت السيدة عائشة رضی الله عنها تسع سنوات في مهبط الوحي، ولم يكن الوحي ينزل على رسول الله ﷺ وهو في لحاف امرأة غيرها (٢)، وكم من آية كريمة نزلت في بيتها الشريف مثل آية آل البيت (٣) وآية المجادلة (٤)، وكم من آية نزلت بسببها مثل آيات الإفك (٥) والتيمم (٦)، وكم من مرة رأت كيف ينزل الوحي على رسول الله ﷺ ووصفت ذلك (٧)، ورأت جبريل عليه السلام (٨) وأقرأها السلام (٩)، وقد جعلها هذا كله على معرفة تامة دقيقة بالنزول وأسبابه، وموضوعاته وقضاياها.

وهكذا كانت هذه السنوات التسع التي عاشتها السيدة عائشة في بيت النبوة ومهبط الوحي هي مصدر علمها الأساسي بالقرآن والسنة، وهي السبب في اكتساب هذا العلم لصفات الاتساع والعمق والأصالة، فقد كانت هذه السنوات تمثل فترة قوية زاهية من أقوى سنوات الدعوة الإسلامية في أحداثها ونتائجها، فهي سنوات التشريع والتنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي للدولة الإسلامية، وهي سنوات الكفاح المسلح ضد أعداء الله والرسول والدين الخنيف، وسنوات النصر والمفاوضات والفتح والوفود

(١) البخارى ٣٧٨٩/٤٩/٧.

(٢) البخارى ٣٩٢/٥ - ٣٠٧٣/٣٩٣، ١٤١/٦ - ٣٣٥٤.٣٣٥٣/١٤٢.

(٣) مسلم ١٩٤/١٥ - ١٩٥.

(٤) أحمد ٤٦/٦.

(٥) البخارى ٣٦٢٨/٣٤٩ - ٣٤٠/٦.

(٦) البخارى ١٩٠/٧ - ٤٠٠٢/١٩١، ١٤٢/٦ - ٣٣٥٧/١٤٣.

(٧) مسلم ٨٨/١٥، أحمد ١١٨/٦.

(٨) ابن سعد ٤٦/٨.

(٩) البخارى ٣٣٥٢/١٤١/٦.

والانتشار، وهكذا كانت هي السنوات الحاسمة فى تاريخ الدعوة الإسلامية وفى حياة النبى ﷺ وحياة المسلمين، الأمر الذى وسع مدارك السيدة عائشة وعمق نظرتها إلى الحياة والدين، كما أنه من ناحية أخرى يمنح الرضا والاطمئنان - وأكثر من ذلك - الثقة المطلقة فى علم السيدة عائشة وفى حجية هذا العلم، فهى لا تروى الحديث الشريف إلا على هيئة الراوى الشاهد الواعى الأمين، فتقول مثلاً: كنا نفعل كذا فى عهد رسول الله ﷺ، أو قال لى كذا، أو سمعته يقول كذا، أو يفعل كذا، أو يقرها على فعل أو قول، أو يستدركه عليها، أو تحكى ما كان يحدث بينها وبينه، أو ما كان يحدث فى حضرته وهى شاهدة، أو توصل له سؤال أحد الناس فيجيبها. . . وما إلى ذلك.

ومما لا شك فيه أيضاً أن هذه المعاشة الحية بين الرضى والنبوة جعلت السيدة عائشة تربط بذكاء ووعى بين القرآن والسنة، وتفهم ما بينهما من صلوات المعانى وعلاقاتها، ويتضح هذا وضوحاً جلياً فى تلك المجموعة الرائعة من الاستدراكات التى أثرت عن السيدة عائشة، وردت فيها كثيراً من مسائل الحديث والفقه إلى أصولها الصحيحة ومعانيها.

لقد كان يصل إلى علم السيدة عائشة أن بعض الصحابة يقرأ الآية على غير قراءتها الصحيحة، أو يفهمها على غير معناها، أو يفتى فى مسألة ما على غير وجهها، أو يروى حديثاً نبوياً توهم فى سمعه أو فى معناه أو مبناه، وما إلى ذلك، فكانت تكشف لهم الحقيقة، وتردهم إلى الصواب، وذلك بذكائها الحاد، الذى جعلها تدرك التفسير الحقيقى الصحيح للآية أو الحديث، والذى جعلها على وعى بالفاظ الحديث ومعانيه، وجعلها تربط بثقة بين القرآن والحديث بعد أن عايشتهما وتابعتهما تسع سنوات مستمرة من أقوى سنوات الدعوة الإسلامية، ولذا نجد فى كل ما تستدرِك «صحة النظر، وصواب النقد، وحضور الحفظ وجودة النقاش»^(١)، حتى لقد استحقت بجدارة أن يقول عنها أبو سلمة بن عبد الرحمن: «ما رأيت أحداً أعلم بسنن رسول الله ﷺ، ولا

(١) الإجابة ص ٥.

أفقه في رأى إذا احتيج إلى رأيه، ولا أعلم بأية فيمن أنزلت ولا بفريضة من عائشة^(١). الأمر الذى شجع العلماء على جمع هذه الاستدراكات وتدوينها فى كتب تحفظها وتصونها. وأول من صنف فى ذلك أبو منصور عبد المحسن بن محمد بن على البغدادى المحدث التاجر السفار من علماء القرن الخامس الهجرى (٤١١ - ٤٨٩ هـ)، وجملة ما ذكره فى مصنفه من الاستدراكات خمسة وعشرون حديثاً^(٢)، ثم جاء بعده بدر الدين الزركشى من علماء القرن الثامن الهجرى (٧٤٥ - ٧٩٤ هـ) فصنف كتابه «الإجابة لا يراد ما استدركته عائشة على الصحابة» وجملة ما ذكر فى مصنفه من الاستدراكات أربعة وسبعون حديثاً^(٣)، وقد لخصه السيوطى كعاداته فى رسالة صغيرة سماها: «عين الإجابة فيما استدركته عائشة على الصحابة».

وقد استدركت السيدة عائشة على كثير من الصحابة، ومنهم: عمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبى هريرة، وأبى سعيد الخدرى، وعبد الله بن مسعود، وأبى موسى الأشعري، وزيد بن ثابت، والبراء بن عازب، وجابر بن عبد الله الأنصارى، وعبد الرحمن بن عوف، وأبى الدرداء، وغيرهم من كبار الصحابة وأجلتهم.

ومن هذه الاستدراكات - التى ضمنتها إلى تفسيرها - استدراكها على أبى هريرة ما كان يرويه عن رسول الله ﷺ من أنه قال: إن من أصبح جنباً فقد أفطر، وأنه قال: إنما الطيرة فى المرأة والدابة والدار، واستدراكها على عمر بن الخطاب وابنه عبد الله ما كانا يرويانه عن النبى ﷺ أنه قال: إن الميت يعذب فى قبره ببيكاء أهله عليه أو ببعض بيكاء أهليه عليه، واستدراكها على ابن عمر أنه يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رءوسهن، واستدراكها عليه أيضاً ما كان يرويه من أن النبى ﷺ قال على قلبه بدر: إنهم الآن يسمعون ما أقول.

(١) الأنساب للبلاذرى ١/٤١٨ (دار المعارف).

(٢) شذرات الذهب ٣/٣٩٢

(٣) نشره سعيد الأفغانى. بدمشق، الطبعة الأولى ١٣٥٨ هـ/١٩٣٩ م.

(٤) نشره حديثاً عبد الله محمد الدرويش بدمشق الطبعة الأولى ١٩٨٣.

فقد نفت قول أبي هريرة أن النبي ﷺ قال إن من أصبح جنباً فقد أفطر، وأكدت أن رسول الله ﷺ كان يصبح جنباً من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم وذلك في رمضان^(١)، كذلك نفت رأى ابن عمر الشخصى فى نقض شعر المغتسلة من الجنابة، وحكت كيف أنها لم تكن تنقض شعرها وهى تغتسل مع رسول الله ﷺ من الجنابة، وأنها كانت لا تزيد على ثلاث إفراغات أو ثلاث حثيات^(٢)، وواضح أن استدراكها فى هذين المثالين يقوم على خبرتها كزوجة للنبي ﷺ. أما استدراكها على أبى هريرة أنه كان يذكر أن النبي ﷺ قال إنما الطيرة فى المرأة والدابة والدار، فقد أوضحت أن الحقيقة فى ذلك أن النبي ﷺ إنما حكى هذا القول عن أهل الجاهلية، فهم الذين كانوا يقولون ذلك لا النبي ﷺ^(٣). والسيدة عائشة تتميز بهذا الوعى اليقظ لألفاظ الحديث ومعانيه، كما تتميز أيضاً ببصيرتها الثاقبة التى تربط بين معانى القرآن والحديث، وتنفذ إلى التفسير وتقدم الحجية، وتستدل بالقرآن الكريم على إبطال قول أهل الجاهلية ذلك، فتذكر قوله تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾^(٤).

وبنفس هذا الوعى لألفاظ الحديث ومعانيه، وإدراكها لارتباط معانى القرآن بالحديث، استدركت على ابن عمر ما كان يقوله من أن النبي ﷺ قال على قلب بدر: أنهم الآن يسمعون ما أقول وكشفت عن الحقيقة فى ذلك، وبينت أن النبي ﷺ قال: «إنهم الآن ليعلمون أن الذى كنت أقول لهم هو الحق»، فحققت أن «يعلمون» مكان «يسمعون»، وأن «الذى كنت أقول لهم» مكان «ما أقول الآن»،^(٥) وهذا هو الحفظ

(١) مالك - رواية محمد بن الحسن - ١٢٣ - ١٢٤

(٢) البخارى ١/١٩٥، مسلم ٤/١٢٠٤، النسائى ١/٣٠٢، الدارمى ١/٢٦٢

(٣) أحمد ٦/٢٤٦.

(٤) سورة الحديد/٢٢

(٥) البخارى ٦/٢٤٧/٣٥٠٣.

والضبط، والانتقان والوعي، كما تستعين هنا بالقرآن الكريم، حيث يقول تعالى: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾^(١) ويقول عز وجل: ﴿وما أنت بمسمع من فى القبور﴾^(٢).

واستدركت على عمر وابنه عبد الله ما ذكرناه من أن النبي ﷺ قال: إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه أو ببعض ذلك، بالرجوع إلى القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾^(٣)، فالذى يعذب إنما يعذب باثمه وذنبه، لا بإثم غيره ولا بذنب غيره، وإن الإنسان سيتحمل مسئولية عمله هو، ولن يتحمل أحد مسئولية عمل غيره. وقد كشفت السيدة عائشة أن النبي ﷺ حينما قال: «إنكم لتبكون عليها، وإنها لتعذب فى قبرها»^(٤)، إنما كان يقرر مشهدين مختلفين لا ارتباط بينهما إلا التعجب من المفارقة، وأن قوله الشريف كان المقصود منه النصح للمسلمين وتحذيرهم من مغبة الوقوع فيما يسبب عذاب القبر^(٥)، كما أوضحت أن أصل هذا الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه» فزيادة العذاب بسبب البكاء خاصة بالكفار واليهود فقط.

ولقد ورد فى الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ كان يحزن على موتى المسلمين وكان يبكى على بعض أصحابه الذين استشهدوا، ومحال أن يفعل ﷺ ما يكون سبباً لعذابهم أو يقر عليه رحمة للعالمين.

واستدركت على ابن عباس قراءته «كذبوا»^(٦) بالتخفيف، فقالت «والله ما وعد الله رسوله من شئ قط إلا علم أنه كائن قبل أن يموت ولكن لم يزل البلاء بالرسول حتى خافوا أن يكون من معهم يكذبونهم» ولذا كانت تقرأها بالتشديد^(٧).

(١) سورة النمل / ٨٠

(٢) سورة فاطر/ ٢٢

(٣) سورة الانعام / ١٦٤

(٤) مالك - رواية يحيى - ٢٣٤

(٥) البخارى ٦/ ٢٤٦ - ٢٤٧ / ٣٥٠٢

(٦) سورة يوسف / ١١٠

(٧) البخارى ٧/ ١٣٦ - ١٣٧ / ٣٩٣٠

وهكذا كانت السيدة عائشة تملك مقدرة تحقيقية فائقة ودقيقة تميز بين الصحيح وغيره من الأحاديث، وكانت الحكم العدل الذى يحتكم إليه الصحابة فيما يشتكل أو يغمض عليهم من روايات أو مسائل أو أقضية، وقد أضافت استدراقات السيدة عائشة إلى المكتبة الفقهية الإسلامية ثراء وخصوبة وسعة وعمقاً.

ومن أجل ما قدمته السيدة عائشة وهى تفسر القرآن بالسنة، كشفها الكثير عن جوانب حياة النبى ﷺ البيئية الخاصة، فلقد كانت مكاتها عند رسول الله ﷺ، وقربها الشديد منه، واختصاصه اياها بالحب والرعاية، وما حباها به الله من ذكاء وفطنة ووعي، وكونها امرأة وزوجة للنبي ﷺ كل هذه عوامل هيات لها ان تعلم المسلمين الكثير عن حياة رسول الله ﷺ الخاصة فى بيته ومع نسائه، وتوضح لهم الأحكام الدينية الحساسة المتصلة بأداب العلاقة النوعية بين الرجل وامراته فى إطار الدين. بما كشفت عن آداب العلاقة الزوجية بينها وبين رسول الله ﷺ، وعلمت المسلمين بذلك الكثير من أمور الدين الحرجة فى هذه الأمور. ومن تعاليم الإسلام فيها وأحكامه.

وتحدثت السيدة عائشة كذلك فيما فسرتة بالسنة الوصفية عن حياة النبى ﷺ البيئية، وكيف كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويكون فى مهنة أهله، ويعمل كما يعمل أحدنا فى بيته، حتى إذا سمع الأذان خرج للصلاة^(١). ولم نجد أروع ولا أدق ولا أجل من وصف خلق رسول الله ﷺ من كلمة السيدة عائشة رضى الله عنها حينما قالت: «كان خلقه القرآن»^(٢). وزادت السيدة عائشة فأوضحت كيف كان رسول الله ﷺ «لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، ولا صحاباً فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح»^(٣)، ولا يختار إلا أيسر الأمور طالما كانت بعيدة عن الإثم، فقد كان أبعد الناس

(١) عبدالرزاق ١١/٢٦٠/٢٠٤٩٢، البخارى ٧/٨٤ - ٨٥ (طبعة الشعب)

(٢) مسلم ٦/٢٥ - ٢٦

(٣) الترمذى ٦/١٥٧ - ١٥٨

عن الإثم، لا يعرف الحقد أو البطش سبيلاً إلى قلبه، فهو رحيم عطوف حنون، ولكن إذا انتهكت حرمة من حرمت الله لا يتردد قط حتى ينتقم لله بها^(١)، وهنا نجد قوياً متيناً. وهو محب للمعروف داع له أمر به^(٢)، نفور من الغيبة ناه عنها كاره لها^(٣)، يقوم الليل حتى تفطر رجلاه مع أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر^(٤)، فهو أخشى الناس لله وأحفظ الناس لحدود الله^(٥).

وهكذا ترسم السيدة عائشة شخصية النبي ﷺ كإنسان، وتحدد علاقته بالناس وعلاقته بالله، وتبين نواحي البر والرحمة فيه ونواحي القوة والحزم وتفرق بينهما، وتردهما إلى أصولهما الحقيقية. وباختصار كان خلق رسول الله ﷺ القرآن كما قالت السيدة عائشة في كلمتها العظيمة الخالدة، فقد صار قرآناً، أو التحم بالقرآن وامتزج به قلباً وقالباً، أو جسداً وروحاً.

وقد فصلت السيدة عائشة في عدة قضايا خطيرة تتعلق بالوحي والنبوة، وبددت الظلمات التي قد تخيم على عقول بعض الناس حيال هذه القضايا. ومنها أن النبي ﷺ لم يكتب شيئاً من الوحي، حتى تلك الآيات التي نزلت عتاباً له من الله^(٦)، ومعنى ذلك أن القرآن الكريم الموجود بين أيدينا تام كامل واف كما أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه الكريم، لم ينقص حرفاً عما أنزل حقيقة ولم يزد حرفاً، ومعنى هذا بالتالي أن ما قد نجد من كلام في بعض المصادر عن «الاختلاف» في نسخ مصاحف بعض الصحابة قد يرجع إلى مسألة النسخ أو إلى مسألة الادارج التفسيري، لا إلى مسألة تزويد أو تنقص. ومنها أن النبي ﷺ لم يكن يعلم الغيب ولا ما في غد^(٧)، فهو ليس كاهناً ولا

(١) مالك - رواية يحيى / ٩٠٢ - ٩٠٣، عبد الرزاق ١٧٩٤٢/٤٤٢/٩

(٢) البخارى ٤٠٤/٤ - ٢٤٣١/٤٠٥

(٣) أبو داود ٢٢١/١٣

(٤) مسلم ١٦٢/١٧

(٥) عبد الرزاق ١٦٧/٦ - ١٠٣٧٥/١٦٨

(٦) الترمذى ٧١/٩

(٧) البخارى ١٧٥/٦ - ١٧٦ (طبعة الشعب).

ساحراً، وإنما هو بشر رسول، ولا تمنحه النبوة سلطاناً على الغيب ولا يعلم الغيب إلا الله وحده، وتعضد السيدة عائشة هذه الحقيقة بآية من كتاب الله يقول فيها عز وجل: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير﴾ (١).

ومن هذه القضايا أيضاً قضية الوحي، فقد روت السيدة عائشة كيف كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ (٢)، ووصفت حاله فى ذلك الوقت العصب (٣)، وروت كيف كان أول ما بدئ به من الوحي وكيف فوجئ بالوحي أول مرة (٤)، وكيف أتاح الله له أن يرى جبريل عليه السلام مرتين فى صورته الحقيقية التى خلقه الله عليها (٥).

ويقودنا هذا إلى الحديث عن أخطر سؤال وجه إلى السيدة عائشة فى هذا الصدد، وهو: هل رأى النبى ﷺ ربه؟ وحينما سمعت السيدة عائشة رضى الله عنها هذا السؤال وقف شعر رأسها هولاً وفزعاً، ونفت بكل قوة وجزم وصرامة أن يكون النبى ﷺ رأى الله سبحانه وتعالى، وأيدت نفيها هذا بحجتين: الأولى - من القرآن الكريم: حيث يقول تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ (٦)، ويقول عز وجل: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب﴾ (٧). فهاتان الآيتان الكريمتان تنفيان نفياً باتاً قاطعاً أن يستطيع أى بشر أن يرى الله سبحانه وتعالى. أما الحجة الثانية - فمن الحديث الشريف: إذ كشفت السيدة عائشة عن أنها كانت أول من سأل النبى ﷺ هذا السؤال من الأمة الإسلامية، واستفسرته عن حقيقة معنى قوله تعالى: ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾ (٨)، وقوله عز وجل: ﴿ولقد رآه نزلة

(١) سورة لقمان / ٣٤

(٢) البخارى ٢/٤/١

(٣) البخارى ٥/٢٧٥/٢٨٧٠، مسلم ٨٨/١٥، أحمد ١١٨/٦

(٤) البخارى ٣٨/٩ - ٣٩ (طبعة الشعب)

(٥) البخارى ٥/٢٨٢/٢٨٨٩، ٢٨٩٠، مسلم ٨/٣، أحمد ٢٤١/٦

(٦) سورة الأنعام / ١٠٣

(٧) سورة الشورى / ٥١

(٨) سورة التكويد / ٢٣

أخري^(١)، ففسر لها النبي ﷺ هاتين الآيتين وأوضح لها أنه جبريل عليه السلام، وأنه لم يره على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها غير هاتين المرتين^(٢).

ومن أهم ما حواه تفسير السيدة عائشة بالسنة تلك الإجابات التي ظفرت بها من رسول الله ﷺ حينما سأله عن تفسير بعض الآيات الغيبية المتعلقة بيوم الحساب، ومنها قوله تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾^(٥) وقوله تعالى: ﴿فأما من أوتى كتابه بيمينه • فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾^(٦). . . وكانت أسئلة السيدة عائشة لرسول الله ﷺ في هذه الآيات أسئلة دقيقة واعية، فهي تريد أن تفهم أين سيكون الناس حين يبذل الله الأرض غير الأرض والسموات؟ وحين يقبض الأرض جميعاً بيده ويطوى السموات بيمينه؟ وهل معنى أن يحشر الناس عراة أن يرى النساء والرجال عورات بعضهم؟ وإذا كان من نوقش الحساب عذب، فما معنى الحساب اليسير الذي في سورة الانشقاق؟ . . إلخ. تلك الأسئلة، ولقد كانت السيدة عائشة شديدة التمحيص والتنقيب، وكانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه.

كذلك أوضحت السيدة عائشة في تفسيرها للقرآن بالحديث كثيرا من جوانب عبادة النبي ﷺ واجتهاده^(٧)، وطهارته^(٨)، وصلاته^(٩). واعتكافه^(١٠)، وستته في السعي بين

(١) سورة النجم / ١٣

(٢) البخارى ٥/٢٨٢/٢٨٨٩ . ٢٨٩٠ . مسلم ٨/٣ ، أحمد ٦/٢٤١

(٣) سورة ابراهيم / ٤٨

(٤) سورة المؤمنون / ٦٠

(٥) سورة الزمر / ٦٧

(٦) سورة الانشقاق / ٧ - ٨

(٧) مسلم ٨/١٧٠٠/١٦٢ ، عبد الرزاق ٦/١٦٧ - ١٦٨ / ١٠٣٧٥

(٨) البخارى ١/١٨٦/٢٤٤ ، ١/١٨٨/٢٤٨ ، ١/٢٠٢/٢٧١ ، مسلم ٣/٢٢٩ - ٢٣٠ ، ٤/٤٢ ، مالك - رواية

محمد بن الحسن / ١١٣ - ١٢٤ ، الترمذى / ١ / ٣٦٠

(٩) البخارى ٣/٣٦٦/١٧٧٨ ، مسلم ٦/٢٥ - ٢٦ ، أبو داود ٤/٣٤ - ٣٧

(١٠) البخارى ٣/٣٦١/١٨٢٢ ، ٣/٣٦٣/١٨٢٦ ، ٣/٣٦٤/١٨٢٨ ، مسلم ٨/٧٠

الصفاء والمرورة^(١)، ووقوفه بعرفات وإفاضته منها^(٢)، والسر في استلامه الركنين اليمانيين من الكعبة^(٣)، وأمنيته في بناء الكعبة كلها على قواعد إبراهيم^(٤)، وتقدم معلومات دقيقة تصف البناء الذي كان يتخيله النبي ﷺ للكعبة المشرفة ويتمناه^(٥). كما تتحدث كذلك عن علاقة النبي ﷺ باليهود^(٦). وتذكر طرفاً من أخباره مع نساءه^(٧)، وشيئاً من غزواته^(٨)، وموقفه من الشعر^(٩)، وتنفيذه لحدود الله^(١٠)، ومبايعته للنساء^(١١). . وغير ذلك مما يتصل بالتفسير.

هذه هي أهم معالم تفسير السيدة عائشة القرآن بالسنة، وأهم عناصره التي تمثل القيمة السامية لهذه الأداة الغالية في التفسير والتي لم نجد مفسراً للقرآن الكريم لم يستعن بها ولم يضمنها تفسيره ولم يبوأها أعلى مكانة في عمله على مدى أربعة عشر قرناً وإلى آخر الزمان.

٢- التفسير بأسباب النزول:

لقد نزلت أغلب آيات القرآن الكريم وسوره ابتداءً دون سبب خاص، وذلك مع استثناء السبب الأصلي في نزول القرآن عموماً وهو هداية الناس إلى طريق الله. ولكن هناك بعض آيات نزلت مرتبطة بسبب معين يختص بشخصيات معينة أو بوقائع خاصة، أو يكون رداً على سؤال أو حلاً لمشكلة، وقد عرفت هذه الأسباب الخاصة التي ارتبطت بها بعض الآيات ونزلت في شأنها باسم «أسباب النزول». ولقد اهتم المفسرون اهتماماً شديداً باستخدام أسباب النزول في تفسيرهم، وذلك لأنها تكشف عن المعنى الحقيقي للآية، وتزيل عنها الغموض، وتوجه تفسيرها إلى أمثل الاستخدامات الفقهية وأدقها إذا كانت متصلة بالتشريع، كما يدخل التفسير بأسباب النزول في باب التفسير التاريخي ويعد

(١) البخارى ١٤٧/٣ - ١٤٨٤/١٤٩

(٢) البخارى ٣٩٢٦/١٣٤/٧

(٣) مالك - رواية يحيى / ٣٦٣ - ٣٦٤

(٤) البخارى ٣/١٢٠/١٤٣٤، مسلم ٩٦، ٨٨/٩ - ٩٧

(٥) البخارى ٣/١٢٠/١٤٣٤، مسلم ٩٤، ٩١، ٨٨/٩ - ٩٥

(٦) البخارى ٥/١١١/٢٦٣١، مسلم ١٤٧/١٤ - ١٤٨

(٧) البخارى ٧/٥٦ - ٥٧ (طبعة الشعب)، مسلم ٧٨/١٠، ٨٩، ٨٠، ٩٠، ٩٣ - ٩٤، الحاكم ١٨٦/٢.

(٨) البخارى ٥/٨٦/٢٥٨٧/٦٣/٣٢٣/٦٣، الحاكم ٣/٣٥ - ٣٦، ٤/١٩٣ - ١٩٤

(٩) الطبرى ٢٣/٢٧، أحمد ٦/١٤٨، ٢٢٢

(١٠) البخارى ٥/٤١٥/٣١٠٩، النسائى ١/٩٩، ١٠١/٧ - ١٠٢، الترمذى ٣٧/٩، أحمد ٦/٢٣٢

(١١) البخارى ٦/١٨٧ - ١٨٧ (طبعة الشعب)، عبد الرزاق ٦/٦ - ٧، ٧/٦، ٧/٨ - ٩٨٢٧

قاعده الرئيسية. ويعبر الصحابة والتابعون عن أسباب النزول بثلاث صيغ، فيقولون: «سبب نزول الآية كذا» أو «حدث كذا فنزلت الآية» أو «نزلت هذه الآية في كذا»، وتعد هذه الصيغ الثلاث نصاً في السببية، وتنفرد الصيغة الثالثة منها باحتمالها أن تكون بياناً لما تتضمنه الآية من أحكام. وفي هذه الحالة تكون التفرقة بين هذا الاحتمال وبين النص على السببية في الصيغة الثالثة بالاعتماد على القرآن.

ولقد كانت أسباب النزول من أهم الأصول التي أقامت عليها السيدة عائشة تفسيرها، ومن البدهى أنها عايشة الدعوة الإسلامية وتابعتها منذ البداية، فهي لم تعقل أبويها إلا وهما على دين الإسلام، ورأت كيف كان رسول الله ﷺ لا يخطئه يوم إلا ويأتي عندهم صباح مساء^(١)، ونستطيع أن نتصور أن النبي ﷺ لم يكن يأتي إلى بيت صديقه أبي بكر إلا لسيئه شكواه، وما يلاقيه من أذى قريش واضطهادها له ولاتباعه، ويتجاذبان أطراف الحديث عن الدعوة ورجالها وأحداثها. ولا شك أن السيدة عائشة كانت تستمع إلى هذه الأحاديث، فصارت على دراية مبكرة بما يحدث للدعوة الإسلامية في خطواتها الأولى، وعلى علم بتطوراتها وأحداثها وشخصياتها يوماً بيوم، الأمر الذي جعلها في النهاية على إحاطة كاملة بتاريخ الإسلام من بدايته. ومن الأمثلة على ذلك ما روته عن الهجرة النبوية الشريفة حيث قالت: «بينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعا^(٢) في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر. قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال: فإنني قد أذن لي في الخروج، فقال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: نعم^(٣). ووضح أن هذا النص يبين كيف كانت السيدة عائشة وهي لم تزل بعد في سن السادسة تستمع إلى أخطر القرارات في تاريخ الدعوة الإسلامية وكانت خير شاهد عليها، بما يتوافر فيها من خاصيتين عظيمتين هما: الصدق والذكاء، فهي الصديقة، البريئة المبرأة من فوق سبع سماوات، وهي التي طالما أثنى رسول الله ﷺ على ذكائها وفطنتها. ومن هنا يكتسب تفسيرها للقرآن الكريم بأسباب نزول آياته قيمة

(١) البخارى ٢٠٦/٦/٣٤٥٧

(٢) متقنعا: مسرعاً مطرق الراس يفكر

(٣) البخارى ٢٠٨/٦ - ٢٠٩/٦/٣٤٥٧

عظمى لا تدرك من سواها .

وإذا كانت السيدة عائشة قد عاصرت أهم أحداث الدعوة الإسلامية، وشاهدت النزول ووقفت على أسبابه، فإنها كانت فى بعض الأحيان هى الشخصية الأساسية المرتبطة بنزول بعض الآيات، مثل آيات النور التى نزلت فى حادث الإفك، وآية التيمم، والآيات التى نزلت فى حادث الاعتزال، ولا أعتقد أن هناك من يستطيع أن يفسر هذه الآيات كما فسرتها السيدة عائشة، فهى أعلم الناس بها، ومن هنا أيضا يكتسب تفسيرها للقرآن الكريم بأسباب نزول آياته قيمة عظمى لا تدرك من سواها، باعتبارها مصدراً أميناً واعياً، وشاهد ثقة .

ولقد منع علماء التفسير القول بالرأى والاجتهاد فى موضوع أسباب النزول وقطعوا بأنه «لا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماح ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها وجدوا فى الطلاب»^(١). ومعاصرة السيدة عائشة رضى الله عنها للتنزيل ووقوفها على أسبابه بصورة قوية كما رأينا، وتوافر خاصيتى الصدق والذكاء عندها، لا يحل لها فقط رواية أسباب النزول، بل يجعل لروايتها فى ذلك حكم المسند، كما قرر الحاكم ذلك فى علوم الحديث وقال: «إن الصحابى الذى شهد السوحى والتنزيل فأخبر عن آية من القرآن أنها نزلت فى كذا وكذا فإنه حديث مسند»^(٢)، وتابعه على ذلك ابن الصلاح^(٣).

وبغض النظر عن صيغ أسباب النزول، فقد استخدمت السيدة عائشة معلوماتها التاريخية فى ذلك لكى تفسر الآيات المرتبطة بأسباب نزول خاصة. ومن ذلك أنه أشكل على عروة بن الزبير قوله تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾^(٤) وذلك لأن ظاهر الآية يقتضى أن السعى ليس بفرض، فذهب عروة إلى عدم فرضيته. ولكن السيدة عائشة ردت عن ذلك حينما أفهمته المعنى الصحيح للآية عن طريق سبب نزولها، وهو أن الأنصار تأثموا من السعى

(١) أسباب النزول ص ٣ - ٤

(٢) معرفة علوم الحديث ص ٢٠

(٣) مقدمة ابن الصلاح ١٢٨

(٤) سورة البقرة / ١٥٨

بينهما لأن ذلك كان من عملهم فى الجاهلية، فأنزل الله هذه الآية ليرفع عنهم الحرج. وفى تفسيرها لقوله تعالى: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ (١) تبين السيدة عائشة أنه نزل فى قريش التى سمت نفسها ومن دان دينها «بالحمس» - والحمس جمع أحمس وهو الشديد الصلب - وذلك لإظهار تشدها وتحمسها لما كانت عليه من أنها لا تقف مع الناس بعرفه ولا تفيض معهم منها، إنما تقف بالمزدلفة وتدفع منها، تعالياً على الناس أو تنسكاً خاصاً، فأنزل الله تعالى قوله الكريم: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ فأبطل عصبية قريش ووثنيها وأكد مبدأ المساواة فى الإسلام، وجعل كلمة الله هى العليا، وأزال التنسك الوثني. وتذكر السيدة عائشة مسألة الطلاق وأن العرب كان الرجل منهم يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها، ثم يرجعها فى العدة، فلا هو بالمطلق لها فتبين منه، ولا هو بالمؤيها أبداً، فشكت إحدى النساء ذلك للنبي ﷺ (٢)، فنزل قوله تعالى: ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ (٣)، وتذكر كذلك موضوع سودة أم المؤمنين حينما خشيت أن يطلقها رسول الله ﷺ لما كبرت، ولم يكن بمستكثر منها، فتنازلت عن يومها لعائشة التى كان يختصها بحبه (٤)، فنزل فى ذلك قوله تعالى: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير﴾ (٥). وتقول فى مسألة تحريم الخمر: «لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة فى الربا، قرأها رسول الله ﷺ على الناس ثم حرم التجارة فى الخمر» (٦).

وفى تفسير السيدة عائشة لقوله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله وللرسول من بعدما أصابهم القرح﴾ (٧). تقول إن أبا بكر الصديق والزبير بن العوام كانا من ضمن هؤلاء

(١) سورة البقرة / ١٩٩

(٢) الترمذى / ٤ - ٣٧٢ - ٣٧٣

(٣) سورة البقرة / ٢٢٩

(٤) البخارى / ٧ / ٤٢ (طبعة الشعب)

(٥) سورة النساء / ١٢٨

(٦) البخارى / ٣ / ١٤٦ / ٣٩٤٣

(٧) سورة آل عمران / ١٧٢

الذين تتحدث عنهم الآية^(١)، فتوضح بذلك أن هذه الآية لم تنزل فيهم ولا بسببهم، وإنما تحكى ما كان منهم على سبيل الإخبار التاريخي.

والسيدة عائشة فى تفسيرها للآيات عن طريق أسباب النزول تدرك تطورات الموضوع سبب النزول وتضعها فى موضعها من التفسير، فمثلا قوله تعالى: ﴿وإن خفتن ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾^(٢)، توضح السيدة عائشة أنه نزل فى موضوع اليتيمة الجميلة الغنية التى يرغب وليها (الذى رباها) فى مالها وجمالها، فيريد أن يتزوجها ويجحفها حقوقها فلا يعطيها المهر الذى يدفع لمثلها، فهى الله عن ذلك، وأمرهم باكمال الصداق إلى سنتهن أو ينكحوا من سواهن من النساء. ثم توضح السيدة عائشة أنه نزل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب الله لهن وترغبون أن تنكهن﴾^(٣)، وقد نزل ذلك بعد أن استفتى الناس رسول الله ﷺ، فبيّن الله فى هذه الآية كيف أنهم ينصرفون عن اليتيمة الدميمة الفقيرة إلى غيرها من النساء، فكما يتركونها حين يرغبون عنها لقلّة مالها وقلّة جمالها، فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها وهى غنية وجميلة إلا أن يقسطوا لها الأوفى من الصداق ويعطوها حقها^(٤).

وكانت السيدة عائشة تضيف الجديد إلى ما كان العلماء يعرفونه عن أسباب النزول، ففى آية الصفا والمروة^(٥) كان العلماء يرون أن سبب نزول هذه الآية يتعلق بالذين كانوا فى الجاهلية يهلون لمناة التى كانت بـ «المشلل»، وكانوا يطوفون أيضاً بالصفا والمروة، فلما جاء الإسلام ورأوا أن القرآن يذكر الطواف بالبيت ولا يذكر الطواف بالصفا والمروة،

(١) البخارى ٦/٣٠٥/٣٥٧٦

(٢) سورة النساء/ ٣

(٣) سورة النساء/ ١٢٧

(٤) البخارى ٥/٢٢/٢٤٨٠

(٥) سورة البقرة/ ١٥٨

سألوا في ذلك رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية لتزيل عنهم الحرج وتأمرهم بالسعى بين الصفا والمروة. فأضافت السيدة عائشة إلى ذلك أن الأنصار كانوا متحرجين من السعى بين الصفا والمروة لأنهم كانوا يطوفون بينهما في الجاهلية، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه الآية (١).

وترى السيدة عائشة أن العبرة في أسباب النزول قد تكون بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ففي قوله تعالى: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير﴾ (٢)، تقول إن هذه الآية نزلت في سودة وفي أشباهها (٣)، مما يوضح أنها ترى أن هناك آيات نزلت في أسباب معينة ولكنها تتعداها إلى غيرها، فيكون اللفظ فيها أعم من السبب. ونحن مع السيدة عائشة في هذا الرأي، فلا يستطيع أحد أن يقول إن عمومات الكتاب والسنة تختص بشخص معين، وإنما غاية ما يمكن أن يقال في ذلك إنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه، فاللفظ قد يكون عاماً، ولكن ذكر سبب النزول يقصر التخصيص على ما عدا صورته.

وتكشف السيدة عائشة في تفسيرها للآية عن طريق سبب النزول عن اسم المبهم في الآية والتي نزلت فيها أو بسببه، فمثلاً تذكر أن التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم (٤)، وأن الزبير بن العوام وأبا بكر الصديق كانا من الذين أصابهم القرح يوم أحد (٥)، وأن الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أبي بن سلول، وحمنة بنت جحش (٦)، وأن المقصود بأولى الفضل والسعة هو أبو بكر الصديق، والمقصود بأولى القربى والمساكين هو مسطح بن أثانة (٧) . . . إلخ.

(١) البخارى ٣/١٤٧ - ١٤٨٤/١٤٩

(٢) سورة النساء/١٢٨

(٣) الحاكم ٢/١٨٦

(٤) تفسير ابن كثير ٦/٤٣٥

(٥) البخارى ٦/٣٠٥ - ٣٥٧٦

(٦) البخارى ٧/٣٣٥ - ٤١١٩، ٧/٣٥١

(٧) البخارى ٦/٣٤٨ - ٣٦٢٨

ومن أهم مميزات الرواية التاريخية التي تستخدمها السيدة عائشة في تفسيرها:

١- التركيز على المعالم الرئيسية الكبرى في الحدث التاريخي، وعدم التطرق إلى تفاصيل جزئية تؤدي إلى تفتت الموضوع: ففي حديثها عن الهجرة النبوية تبدأ بذكر إرهابات الهجرة من اضطهاد مشركي قريش للمسلمين ومحاولة أبيها الهجرة إلى الحبشة، وإجارة ابن الدغنة له، ثم ردها، ثم هجرة المسلمين إلى المدينة، وانتظار أبي بكر لمصاحبة النبي ﷺ حتى جاء اليوم الموعود.

وهكذا تحدد العناصر الرئيسية للحدث التاريخي، دون أن تدخل في تفاصيل هامشية.

٢- الاهتمام بالتسلسل التاريخي للوقائع بطريقة موضوعية: فترصد الحدث التاريخي مثلما وقع وبنفس ترتيبه، فلا تقفز عبر وقائعه، ولا تذكر جانباً منه وتهمل آخر، ولا تخضع كيفية السرد لفلسفة ترتيب وتدخل لخدمة رؤية شخصية خاصة بها.

٣- إضاءة الحدث التاريخي: وتتبع السيدة عائشة طريقة السرد الموضوعي المجرد الخالص للحدث التاريخي، فلا تعلق على الأحداث، ولا تفلسفها ولا تحكم عليها، وتكاد لا تتدخل في الرواية إلا في حالة واحدة فقط تنحصر في إضاءتها لبعض جوانب الحدث التي قد تبدو غير واضحة. فمثلاً تقول وهي تحكى حادثة الإفك: «وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه وهم يحسبون أنى فيه»^(١)، وهنا تلقى الضوء على ذلك الوهم منهم وتوضح لماذا كانوا يحسبون ذلك، فتستطرد: «وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن»^(٢) ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقمة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه،

(١) البخارى ٣٦٢٨/٣٤٨/٦

(٢) البخارى ٣٦٢٨/٣٤١/٦

(٣) لم يهبلن: لم يكثر لحمهن.

وكنت إذ ذاك جارية حديثة السن^(١). وهكذا كانت تضيء بعض جوانب الحادث التاريخي التي قد تبدو غير واضحة، وذلك فيما يشبه الإدراج التوضيحي.

٤- موضوعية الرواية وحيدتها: وهنا تبرز ميزة الصدق التي اشتهرت بها السيدة عائشة، فهي تروى الحدث بموضوعية نزيهة وحيدة صادقة، فلا تتميز لوجهة نظر معينة دون وجهتها الحقيقية، ولا تأخذ من الرواية ما تراه مناسباً وتدع ما سوى ذلك، وإنما تروى الحدث كاملاً وكيفما وقع وبجميع عناصره وتبرز ذلك كله على السواء دون ميل أو هوى.

٥- النزاهة في الحديث عن الشخصيات: ومتابعة لميزة الصدق التي اشتهرت بها السيدة عائشة نجد أنها حين تتحدث عن شخصيات الحدث التاريخي، يتسم حديثها عن هذه الشخصيات بالنزاهة والموضوعية، وتعلن فيه كل الحقيقة فمثلاً تتحدث عن موقف كل من زينب بنت جحش أم المؤمنين وأختها حمنة من حادث الإفك، فتعطي لكل منهما حقها وتذكر لزينب حسنتها على الرغم مما كان بينهما من المنافسة التقليدية التي تكون عادة بين الضرائر، وتذكر لحمنة سيئتها ولكن دون انفعال، فتقول: «وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمرى، فقال لزينب: ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى، والله ما علمت إلا خيراً. قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع. قالت: وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك»^(٢).

وإذا اضطرت السيدة عائشة إلى الحديث عن نفسها بحكم كونها إحدى الشخصيات الرئيسية في الحدث نجد حديثها بسيطاً متواضعاً، فلا تعظم من نفسها ولا تفخم في أمرها، ولا تنسب لنفسها مالم تفعله أو تقله، وإنما يخيل إلينا أنها تخفض صوتها حياءً وتواضعاً، تقول في حادث الإفك وهي تكفكف دمعها وتجمع صوتها: «ثم تحولت، واضطجعت على فراشي، والله يعلم أنى حينئذ بريئة، وأن الله مبرئى براءتى، ولكن

(١) البخارى ٦/٣٤٨/٣٦٢٨

(٢) البخارى ٦/٣٤١/٣٦٢٨

والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأن وحيا يتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها»(١).

٦- إبراز الأقوال الهامة والمواقف الحاسمة في الحدث التاريخي: وتهتم السيدة عائشة بذكر الأقوال الهامة والمواقف الحاسمة في الحدث التاريخي، والتي ترتبت عليها نتائج ضرورية لنمو الحدث وتطوره، ففي حادث الإفك مثلا تذكر ما قالت له أمها أم رومان حين جاءتها عائشة شاكية باكية: «يابنية هونى عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن عليها»(٢)، ولا تنسى أيضا كلمة أبي بكر الصديق في حادث الإسراء حين قال للمشركين والمتشككين: «إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة»(٣)، وكلمة أسيد بن حضير لها في حادث التيمم: «جزاك الله خيراً، فوالله ما نزل بك أمر قط إلا جعل الله لك منه مخرجاً، وجعل للمسلمين فيه بركة»(٤).

ومن المواقف الهامة التي اهتمت السيدة عائشة بإبرازها: موقف النبي ﷺ والمسلمين في المسجد وهو يتعذرهم فيمن تطاولوا عليها، وكيف تطايرت الكلمات واشتبك المسلمون وكاد ينشب بينهم القتال(٥). وموقف صفوان بن المعطل منها حين وجدها متكومة على الأرض وحدها بعد أن رحل الجيش(٦)، وموقف أبي بكر حين أذنه النبي ﷺ بالهجرة. ولم سميت أسماء «ذات النطاقين»(٧). وغير ذلك.

٧- وتهتم السيدة عائشة اهتماما كبيراً في تفسيرها التاريخي بالكشف عن الحقائق

(١) البخارى ٣٦٢٨/٣٤٧/٦

(٢) البخارى ٣٦٢٨/٣٤٤/٦

(٣) الحاكم ٧٧ - ٧٦/٣

(٤) البخارى ٣٣٥٧/١٤٣/٦

(٥) البخارى ٣٦٢٨/٣٤٦ - ٣٤٥/٦

(٦) البخارى ٣٦٢٨/٣٤٢/٦

(٧) البخارى ٣٤٥٧/٢٠٩/٦

الدقيقة الخافية مثل حادث الشاة المسمومة التي قدمتها امرأة يهودية إلى النبي ﷺ يوم خيبر، فقد كشفت السيدة عائشة أن ذلك الحادث كان له تأثير في مرض رسول الله ﷺ الأخير^(١). كذلك كشفت عن حقيقة الإشاعة التي تزعم أن النبي ﷺ أوصى إلى عليّ ابن أبي طالب بالخلافة من بعده، فقالت السيدة عائشة: «من قاله؟؟ لقد رأيت النبي ﷺ وإنى لمستدته إلى صدرى، فدعا بالطست، فانخث، فمات، فما شعرت، فكيف أوصى إليه^(٢). وكشفت أيضاً عن أن العمى الذي أصاب حسان بن ثابت هو العذاب العظيم الذي ذكره الله فى قوله تعالى: ﴿والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾^(٣). وكشفت أن السر فى أن النبي ﷺ لم يكن يسمح فى الكعبة إلا الركنين اليمانيين فقط هو أنهما وحدهما الركنان المقامان على قواعد إبراهيم^(٤). . . وهكذا.

٣- التفسير اللغوى والبلاغى:

كانت السيدة عائشة رضى الله عنها على تمكن قدير من اللغة، وكانت ذات حس أصيل بالأسلوب العربى وبلاغته وأسرار نظامه وجماله، فقد نشأت نشأة عربية صميمة، إذا دفعها أبوها - كعادة أشرف العرب - إلى من يقوم بتربيتها من عرب البادية، فتولى تربيتها جماعة من بنى مخزوم، فأكسبتها حياة البادية النضارة والفصاحة والبلاغة. ولم تكذب تبلغ التاسعة من عمرها حتى انتقلت إلى بيت النبوة زوجة لرسول الله ﷺ، وهو أفصح من نطق بالضاد، و«ما ظنكم بأدب النبوة» كما يقول الشعبى^(٥).

وكانت السيدة عائشة فخمة الأسلوب، متينة اللغة، جزلة العبارات، بليغة الكلمات، عذبة الألفاظ، وقد أبرز ذلك كله - فى ثوب قشيب - قوة حجتها وصوتها الجهورى، مما ساعدها على استمالة الأسماع والقلوب، والسيطرة على المواقف العصبية.

وهذا نموذج من قولها فى رثاء أبيها الصديق:

«رحمك الله يا أبت، لقد قمت بالدين حين وهى شعبه، وتفاسم صدعه، ورجفت

(١) البخارى ٩٢/٧ - ٩٣

(٢) البخارى ٣٨٧٣/١٠٥/٧

(٣) سورة النور/ ١١، وانظر: البخارى ٣٥١/٦ - ٣٦٣١/٣٥٢

(٤) مالك - رواية يحيى/ ٣٦٣ - ٣٦٤

(٥) سير النبلاء ص ٨٢

جوانبه، انقبضت مما أصغوا^(١) إليه، وشمرت فيما دنوا فيه^(٢)، واستخففت من دنياك ما استوطنوا، وصغرت منها ما عظموا، ورعين دينك فيما أغفلوا. أطالوا عنان الأمن، واقتعدت مطى الحذر، ولم تهضم دينك، ولم تشن عرك، ففاز عند المساهمة قدحك، وخف مما استوزروا ظهرك». . . . وتقول أيضاً: «نضر الله وجهك يا أبت، فلقد كنت للدنيا مذلاً بادبارك عنها، وللآخرة معزاً باقبالك عليها، ولئن كان أجل الرزايا بعد رسول الله ﷺ رزؤك، وأكبر المصائب فقدك، إن كتاب الله ليعد بجميل العزاء عنك أحسن العوض منك، فأنا أنتجز من الله موعوده فيك بالصبر عليك، وأستعيضه منك بالاستغفار لك. عليك سلام الله ورحمته، توديع غير قالية لحياتك ولا زارية على القضاء فيك»^(٣).

وتصف الصديق والفاروق بقولها:

«إنَّ أبى والله لا تعطوه الأيدى^(٤)، طود منيف، وظل ممدود، أنجح إذ أكديتم^(٥)، وسبق إذ نيتم سبق الجواد إذا استولى على الأمد^(٦)، فتى قريش ناشثا، وكهفها^(٧) كهلا، يفك عانيها، ويريش مملقها^(٨)، ويرأب صدعها، ويلم شعثها، فما برحت شكيمته فى ذات الله تشد حتى اتخذ بفنائها مسجداً يحيى فيه ما أمات المبتلون، وكان وقيد^(٩) الجوانح، غزير الدمعة، شجى النشيج، وأصفت^(١٠) إليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزون به، والله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون. وأكبرت ذلك رجالات قريش، فما فلوا له صفاة^(١١)، ولا قصفوا له قناة^(١٢)، حتى ضرب الحق

(١) أصغوا إليه: مالوا إليه.

(٢) دنوا فيه: تهاونوا فيه.

(٣) عيون الأخبار ٢/٣١٣ - ٣١٤

(٤) لا تعطوه الأيدى: لا تبلغه.

(٥) أنجح إذ أكديتم: أعطى ويسر إذ منعم.

(٦) إذا استولى على الأمد: إذا بلغ الغاية.

(٧) كهفها: ملجأها.

(٨) يريش مملقها: يعطى فقيرها ويسر له حاله.

(٩) وقيد الجوانح: محزون القلب.

(١٠) أصفت وتصفت كلها بمعنى واحد وهو اجتمعت.

(١١) الصفاة: الحجر.

(١٢) القناة: الرمح.

بجرانه^(١)، وألقى بركه^(٢)، وورست أوتاده، فلما قبض الله نبيه، ضرب الشيطان رواقه^(٣)، ومد طنبه^(٤)، ونصب حباله، وأجلب بخيله ورجله، فقام الصديق حاسرا مشمرا، فرد نشر الإسلام على غره^(٥)، وأقام أوده بثقافه^(٦)، فابذعر^(٧) النفاق بوطنه، وانتاش^(٨) الناس بعدله، حتى أراح الحق على أهله، وحقن الدماء في أمهبا^(٩). ثم أتته منيته، فسد ثلمته^(١٠) نظيره في الرحمة، وشقيقه في المعدلة، ذلك ابن الخطاب، لله درّ أم حفلت له ودرت عليه، ففتح الفتوح، وشرذ الشرك، وبعج الأرض^(١١)، فتاءت أكلها^(١٢)، ولفظت جناها، ترأمه وبأباها، وتريده ويصدف عنها، ثم تركها كما صحبها^(١٣).

هذا نماذج تصور بوضوح كيف كانت جزالة اللغة عند السيدة عائشة وفخامتها، وكيف كانت نصاعة الأسلوب، ومثانة التركيب، وقوة العبارات. ولقد شهد لها بالفصاحة والبلاغة رجال من ذوى الشأن فى عصرها، فقال معاوية بن أبى سفيان: «والله ما سمعت قط أبلغ من عائشة ليس رسول الله ﷺ»^(١٤)، وقال القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق: «ما رأيت متكلماً ولا متكلمة قبلها ولا بعدها أبلغ منها»^(١٥)، وقال الأحنف بن قيس: «سمعت خطبة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى والخلفاء بعدهم. . فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من فى عائشة»^(١٦).

(١) الجران: باطن العنق.

(٢) برك البعير: صدره.

(٣) رواقه: خبائه أو خيمته.

(٤) الطنب جبل الخبء.

(٥) على غره: أى على ما كان، والغر كل كسر مثن فى ثوب أو جلد أو نحوه ومنه اطو الثوب على غره الأول كما كان مطويا والمراد أنه قضى على المرتدين ونشر الإسلام كما كان على عهد النبى صلى الله عليه وسلم.

(٦) الثقاف: ما تسوى به الرماح.

(٧) ابذعر وابدقر: تفرق وتبدد.

(٨) انتاش: أنهض.

(٩) الإهاب: الجلد.

(١٠) الثلمة: الخلل والصدع.

(١١) بعج الأرض: شقها وذللها وزرعها وعمرها.

(١٢) فتاءت: أخرجت وأظهرت.

(١٣) العقد الفريد ٤/٢٦٢ - ٢٦٣

(١٤) سير النبلاء ص ٦٧

(١٥) الأغاني ٥/٢١ (طبع ليدن ١٣٠٥هـ).

(١٦) سير النبلاء ٧٧

ومن أهم الأقوال الماثورة عن السيدة عائشة قولها: «كل كرم دونه لؤم فاللؤم أولى به، وكل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به»، (١) أى أن أولى الأشياء بالإنسان طبائع نفسه وخصالها، فإذا كرمت فلا يضره لؤم أوليته وإذا لؤمت فلا ينفعه كرم أوليته. ومن هذه الأقوال الماثورة أيضاً قولها: «المغزل بيد المرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد فى سبيل الله» (٢)، وقولها: «إن الله خلقا قلوبهم كقلوب الطير، كلما خفت الرياح خفت معها، فأف للجبناء!! أف للجبناء» (٣) وقولها: «من يطلب أن يحمد الناس بسخط الله، يكن من يحمده من الناس ذاماً» (٤)، وقولها: «إنكم تفعلون أفضل العبادة: التواضع» (٥)، وقولها «أقلوا الذنوب، فإنكم لن تلقوا الله عز وجل بشيء أفضل من قلة الذنوب» (٦). . . وقولها: «النكاح رق، فلينظر أحدكم عند من يرق كريمته» (٧). . . وغير ذلك من أقوال ماثورة. وباختصار يقول موسى بن طلحة: «ما رأيت أفصح من عائشة» (٨).

ولقد كانت السيدة عائشة من أحب الناس للشعر العربى وأرواهم له، فقد نشأت نشأة بدوية خالصة، وكان أبوها الصديق ذواقة للشعر راوية له، وكان أخوها عبد الله ينظم مقطعات عاطفية جميلة، فلا غرو أن أحبت السيدة عائشة الشعر، وأحست به، وعاشت فى جوه ووجدانه، وحفظت منه ثروة عظيمة، حتى لتقول عن حفظها لشعر لبيد بن ربيعة العامرى: «إنى لأروى ألف بيت له، وإنه أقل ما أروى لغيره» (٩). وكانت توصى الناس أن يعلموا أولادهم الشعر فتقول لهم: «رووا» (١٠). أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم» (١١). وكانت تستشهد بالشعر دائماً فى مختلف المواقف (١٢). وفى ذلك يقول عروة: «ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً» (١٣).

(١) العقد الفريد ٢/ ٢٩١

(٢) المصدر السابق ٢/ ٤٥٥

(٣) المصدر السابق ١/ ١٣٩

(٤) عبد الرزاق ١١/ ٤٥١/ ٢٠٩٧٨

(٥) الزهد ١٦٤ - ١٦٥

(٦) الزهد/ ١٦٥

(٧) الزهد/ ٦/ ٨٢

(٨) سير النبلاء ٧٧

(٩) العقد الفريد ٤/ ٢٧٥

(١٠) فى رواية أخرى «علموا»: العقد الفريد ٦/ ٧

(١١) العقد الفريد ٥/ ٢٧٤

(١٢) عيون الأخبار ٣/ ١٦٢، العقد الفريد ١/ ٢٧٨ - ٢٧٩، ٢/ ٣٣٩، ٣/ ٢٣٢، ٤/ ٢٦٤، ٢٧٥، ٢٨١،

٢٨٢، ٦/ ٢٠ - ٢١، الأغاني ١/ ٣١، ١٤ الكامل للمبرد ٧٢٤ - ٧٢٥

(١٣) الاستيعاب لابن عبد البر ٤/ ١٨٨٣

هذه القدرة العظيمة التي كانت عليها السيدة عائشة في السلغة والشعر، اتخذت إتخاذاً رائعاً ببصيرتها النافذة بحقيقة التشريع وجوهره وفلسفته، ومن ثم جاء فهمها للمعنى المراد من النص القرآني دقيقاً دقة عظيمة، وجاء اختيارها التفسير الصحيح الواعي للفظ القرآنية بلطف وخبرة وحذق.

ومن أبلغ الأمثلة على ذلك تفسيرها للقروء في قوله تعالى: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾^(١)، فقد فسرت القروء هنا بالأطهار وليس بالحيض، ومكمن الذكاء هنا أن لفظة القروء من الأضداد، إذ قد يراد بها الطهر، كما قد يراد بها الحيض، وذلك لأن الأصل المشترك في هذين المعنيين هو الوقت المعلوم المعتاد، سواء أكان هذا الوقت للمجيء أم للإدبار، وهذا هو السر اللغوي الدقيق في قول العرب: أقرأ النجم: إذا جاء وقت طلوعه أو وقت أفوله، وأقرأت الريح: بمعنى هبت لوقتها وحين هبوبها^(٢)، وقد قال شاعرهم في ذلك:

إذا ما الشرياً وقد أقرأت

أحس السما كان منها أفولا

وقال مالك بن الحارث الهذلي:

شنت العقر عقر بنى شليل

إذا هبت لقارئها الرياح^(٣)

وعلى هذا الأساس، سمي بعض العرب وقت مجيء الحيض قرأ، إذا كان وقتاً معلوماً معتاداً لظهور الدم وإدبار الطهر، ومنه قوله ﷺ لفاطمة بنت أبي حبيش: «دعى الصلاة أيام أقرأئك»: أي دعى الصلاة أيام إقبال حيضتك.

كما سمي بعض آخر من العرب وقت مجيء الطهر قرأ إذا كان وقتاً معلوماً معتاداً لإقبال الطهر وإدبار الدم، ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس:

(١) سورة البقرة/ ٢٢٨

(٢) تفسير الطبري ٢/ ٤٤٤

(٣) المصدر السابق نفسه

وفى كل عام أنت جاشم غزوة

تشد لأقصاها عظيم عزائك

مورثة مالا وفى المجد رفعة

لما ضاع فيها من قروء نساءكا^(١)

وعلى هذا الأساس جاء الاختلاف فى معنى لفظة القروء فى الآية: فرأى فريق أن المقصود من القروء هنا الحيض، ومنهم عمر وعلى وابن مسعود وأبو موسى ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدى والربيع والضحاك. ورأى فريق آخر أن المقصود من القروء هنا الأطهار، وهو قول السيدة عائشة وابن عمر وزيد بن ثابت والزهرى وأبان بن عثمان.

والواقع أن رأى السيدة عائشة هو الرأى الصحيح، والذي يحسم ذلك هو فهم المطلوب القرآنى من لفظة القروء هنا الذى يحدد القروء بثلاثة، وفهم السيدة عائشة للعدد ثلاثة هو الذى جعلها تختار تفسير القروء هنا بالأطهار وليس بالحيض، على أساس أن الطلاق لا يقع إلا فى الطهر، وأن عدة المطلقة تبدأ عقب وقوع الطلاق فى ذلك الطهر، وإذا، فالطهر الذى يقع فيه الطلاق وتبدأ منه العدة للمطلقة هو الطهر الأول فى الحساب الشرعى، أى بمعنى أدق القرء الأول. ثم تأتى بعده حيضة أولى وطهر ثان أى قرء ثان، ثم حيضة ثانية وطهر ثالث أى قرء ثالث، فإذا دخلت فى الدم من الحيضة الثالثة، فقد بان من زوجها، وبرئت منه، وبرىء منها ولا رجعة له عليها، ولا ميراث بينهما، وحلت للأزواج، وذلك لأنها استوفت الأطهار الثلاثة التى حددها الشرع لضمان براءة الرحم من الحمل، وهذا يؤكد أن تفسير القروء فى الآية بالأطهار هو التفسير الدقيق الصحيح.

أما من ذهبوا إلى أن المراد بالقروء فى هذه الآية الحيض، فيكمن خطأهم فى أنهم حسبوا الأطهار هنا أربعة لا ثلاثة، وذلك لأنهم لم يحسبوا الطهر الأول الذى وقع فيه الطلاق وبدأت منه العدة، وإنما حسبوا الحيضة التى تعقبه قرءاً أول، ثم طهر فحيض ثان أى قرء ثان، ثم طهر فحيض ثالث أى قرء ثالث. فإذا اغتسلت المطلقة من دم الحيض

(١) ديوان الأعشى ص ٩١

الثالث ودخلت فى الطهر الرابع فقد بان من زوجها وحلت للأزواج . وعلى هذا فباسقاطهم الطهر الأول - الذى لا يعدونه قرأاً والذى حدد فيه الشرع وقوع الطلاق وبدء العدة - وصلوا إلى الطهر الرابع، ولا أهمية للطهر الرابع، لأن الشرع حدد الطهر الثالث لإعلان براءة الرحم من الحمل، وإذا، فإن إضافتهم للطهر الرابع تعد تزييداً لا أهمية له من ناحية، كما يخالف حد الشرع من ناحية أخرى .

وهكذا كانت نظرة السيدة عائشة إلى لفظة القروء فى هذه الآية نظرة ثاقبة، وكان تفسيرها لها بالأطهار تفسير صائب، يبين نفاذها إلى أعماق الأسلوب القرآنى، وتفهمها لمرامى أساليبه، ووعياها الحاد بحدود التشريع وحكمته، وتمثلها المتكامل لروح الشريعة، وتمكنها القدير من اللغة العربية من حيث معرفة أصل الكلمة واشتقاقاتها ودلالاتها واللغات المختلفة فيها: وكل ذلك أمن لها الطريق اللغوى، فلم تأخذ بلغة ما للفظ لا تناسب مع المطلوب القرآنى فى التفسير، ذلك المطلوب الذى تظن له بعقل واع، وتنظر إليه بعين يقظة .

ولعل هذا هو السر فيما نجد عند القدماء من ربطهم علم السيدة عائشة بالفقه والشعر معاً، يقول عروة بن الزبير: «ما رأيت أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة»^(١)، ويقول أبو عمر بن عبد البر: «إن عائشة كانت وحيدة عصرها فى ثلاثة علوم: علم الفقه، وعلم الطب، وعلم الشعر»^(٢) .

ومن الأمثلة الدالة على فهم السيدة عائشة لأسلوب القرآن تفسيرها لآية السعى بين الصفا والمروة .

ومعروف أن أصل تشريع السعى بين الصفا والمروة تكريم إلهى للسيدة هاجر حين سعت لاهئة فزعة بين جبلى الصفا والمروة سبع مرات جيئة وذهاباً وهى تبحث عن ماء لتسقى صغيرها إسماعيل الذى كان قد أوشك على الموت عطشاً، حتى تداركتهما رحمة

(١) الإصابة ٨/١٨

(٢) الإجابة ٥٦

الله، فأرسل لهما ملكاً كريماً بحث بعقبه أو بجناحه فتفجرت مياه زمزم، وهذه هي
 حكمة تشريع السعى بين الصفا والمروة. وقد سار هذا التشريع منذ أن أذن إبراهيم عليه
 السلام في الناس بالحج، ولكن بمرور الزمن ورجوع الوثنية، وضع العرب صنما يدعى
 «إسافا» على الصفا وصنما آخر يدعى «نائلة» على المروة، وصاروا يسعون بينهما أثناء
 الحج. ولما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر
 فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾^(١)، اختلط الأمر على عروة بن الزبير، وفهم أن
 المقصود بذلك أنه لا جناح على من لا يطوف بهما، ولكنه لما سأل السيدة عائشة عن
 ذلك، أوضحت له حقيقة تفسير هذه الآية، وأفهمته أن الأنصار كانوا في الجاهلية
 يهلون في حجهم لمناة وهي صنم أسود وضع رمزا للموت بجبل يدعى «المشلل» وكانوا
 لا يطوفون بين الصفا والمروة تخرجاً وتعظيماً لمناة. فلما جاء الإسلام، ورأوا أن رسول
 الله ﷺ أمر بالطواف بالبيت ولم يذكر السعى بين الصفا والمروة، سألوا رسول الله ﷺ
 عن حكم هذا السعى، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج
 البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾. فبينت السيدة عائشة أن الله سبحانه
 وتعالى أمر في هذه الآية بالسعى بين الصفا والمروة، وعده من شعائر الحج الواجبة،
 وأضافت أن النبي ﷺ سنَّ للمسلمين السعى بينهما، فليس لأحد أن يمتنع عن ذلك.

وواضح أن السيدة عائشة بحسها اللغوي الأصيل فهمت كيف أن الآية لو كانت كما
 أولها عروة لكانت «فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما»، وليست هذه الحقيقة، لأن قول
 الله هنا وإن كان ظاهره الخبر إلا أنه في معنى الأمر. كما أنه لا تناقض في كونه أمراً
 بالطواف، وكونه في نفس الوقت رخصة بلا جناح لمن يطوف، لأنه على الرغم من أن
 الجناح لا يوضع إلا عمّن يأتي ما عليه باتيانه الجناح والخرج، وأن الأمر والترخيص بلا
 جناح لا يجتمعان معاً في أمر واحد وفي آن واحد - فإن التفسير الحقيقي لهذه الآية
 المعتمد على الحس اللغوي السليم وعلى الفقه الصحيح وسبب النزول، يوضح أن الله
 سبحانه وتعالى أمر بالسعى بين الصفا والمروة كشعيرة من شعائر الحج، كما طمأن الناس

(١) سورة البقرة / ١٥٨

من ناحية هذا السعى، فلا يتخوفون منه ولا يتخرجون من أجل ما كان في الجاهلية من وجود الصنمين عليهما، إذ كان المشركون يسعون بين هذين الصنمين شركا، أما المسلمون فيسعون بين الربوتين إيماناً بالشعيرة وطاعة لأمر الله، فلا جناح عليهم إذن في ذلك.

وفي تفسيرها لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نَسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١)، وتخالف السيدة عائشة المفسرين مخالفة واضحة نتجت عن فهمها العميق للأسلوب القرآني، وحسها الأصيل باللغة العربية والبلاغة، وإحاطتها الواسعة بحدود التشريع.

فقد رأى فريق منهم ابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس أنه إذا انقضت الأشهر الأربعة من يوم يؤلى الرجل من امرأته فهي تطليقة بائنة. وقال آخرون منهم أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ومكحول والزهري وربيعة إنها تطليقة رجعية، واعتمدوا في ذلك على أن عزيمة الطلاق عند الرجل قد انقضت بانقضاء الأشهر الأربعة وتركه الفيئة خلالها. أما السيدة عائشة فقد رأت أن يوقف المؤلى بعد انقضاء الأشهر الأربعة، فإذا أن يفيء وإما أن يطلق، ولا تعد انقضاء الأشهر الأربعة طلاقاً بائناً ولا طلاقاً رجعياً، حتى ولو ألى الرجل أكثر من أربعة أشهر، صحيح أنها تؤثمه لو ألى أكثر من أربعة أشهر لاستوقاحه بالتعدى على التحديد الشرعي للإيلاء، ولكنها لا ترى أن يفارق امرأته مهما طالت فترة إيلائه، ولا توقع بانقضاء الأشهر الأربعة أو أكثر منها طلاقاً من أى نوع كان، فالإيلاء عندها هنا ليس بشيء من هذه الناحية وحجتها في ذلك:

١- أن الواو العاطفة في الآية بين قوله تعالى: ﴿فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بعد قوله تعالى في صدر الآية: ﴿لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نَسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾، الذي يعد مقدمة مشتركة لكلتا الجملتين المعطوفتين، لا يفهم أن الطلاق يقع بانقضاء الأشهر الأربعة، وإنما يفهم أن

(١) سورة البقرة/ ٢٢٦ - ٢٢٧

يوقف المؤلى بعد انقضاء الأشهر الأربعة فإذا أن يفىء وإما أن يطلق. ومن الواضح أن هذا التفسير منطقي ويتطابق مع معنى النص.

٢- أن قوله تعالى: ﴿سميع﴾ بعد قوله: ﴿وإن عزموا الطلاق﴾، يقتضى أن يكون هناك مسموعا بإنشاء التطليق بعد وجود العزم عليه، سواء أوقع هذا المسموع خلال الأشهر الأربعة، أم بعدها بزمان طال أو قصر، فالطلاق لا يقع لمجرد انقضاء مدة ما على إيلاء الرجل سواء أطالت هذه المدة أم قصرت، وسواء أكانت الأشهر الشرعية أربعة أم أكثر منها، فإن ذلك لا يسوغ عند السيدة عائشة أن يترتب عليه تطليقة بائنة أو رجعية أو أى شىء آخر، مالم يقع إنشاء تطليق ويسمع، فالفيصل فى وقوع الطلاق هو إلقاء صيغته وسماعها، بغض النظر عن حدود فترة الإيلاء أو تجاوزها بقليل أو بكثير.

والفرق بين تفسير السيدة عائشة وتفسير الآخرين يكمن فى اختلاف نظرة كل منهما إلى حدود فترة الإيلاء، فالسيدة عائشة لا ترى أن مرور هذه الفترة يترتب عليه تطليقة من أى نوع، لأن التطليقة عندها لا تقع إلا بعد العزم وسماع إنشاء التطليق، ولا تعترف بوجود أى نوع من الصلة بين تجاوز فترة الإيلاء ووقوع الطلاق. أما هم فيعدون مجرد مرور الأشهر الأربعة المحددة شرعا للإيلاء تطليقة إما بائنة وإما رجعية.

وكان السيدة عائشة تفهم قوله تعالى على هذا النحو: للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر (وبعد انقضائها) فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع (لإلقاء إنشاء التطليق) عليم. أما هم فقد فهموا قوله تعالى على هذا النحو: للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر (وفى خلال هذه الأشهر الأربعة) فإن فاءوا (فيها) فإن الله غفور رحيم، وإن عزموا الطلاق (بتركهم الفيئة فيها) فإن الله سميع عليم.

فشرط وقوع الطلاق عندها هو إنشاء صيغته وسماعها ولا التفات لحدود فترة الإيلاء، وشرط وقوعه عندهم مجرد إنتهاء الأشهر الأربعة المحددة شرعا للإيلاء، على أساس أن المؤلى ترك الفيئة فيها مما يفصح عن عزمه على الطلاق ورغبته فيه وإعراضه

عن الصلح ورغبته عنه، فيقع الطلاق.

ولنتأمل مدى احترام السيدة عائشة للعلاقات الإنسانية، فلا تجعل الطلاق إلا محصوراً بإنشاء صيغته وسماعها، وفي هذا نفحة من التجاوز والرحمة، فعسى أن تهدأ النفوس وتستقر الأحوال وتعود الأشياء إلى طبيعتها. ولنتأمل أيضاً مدى فهم السيدة عائشة للغة القرآن وأسلوبه وبلاغته وروحه وفلسفته، وكيف كان فهمها لقوله تعالى: ﴿سَمِعَ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ وفهمها لقيمة العطف ووظيفته في الآية هو المفتاح الذي فتحت به باب التفسير وباب الرحمة كذلك.

رابعاً: التفسير بالاجتهاد الشخصي:

لا يستطيع أحد أن ينكر أثر البصمة الذاتية في أى عمل إنسانى وخاصة ما يتعلق بالفكر منه ونحن إذا نظرنا إلى التفسيرات الأولية للقرآن الكريم، والتي اصطلاح العلماء على تسميتها بالتفسيرات السلفية، لا نستطيع أن نتجاهل احساسنا بروح صاحب التفسير وطريقته فى التفكير، وطابعه الفردى الخاص الذى يميز عمله عن غيره.

والسيدة عائشة بشخصيتها الفذة، ومواهبها الأصيلة، وقدراتها العلمية، استطاعت أن تفرض وجودها الفكرى الاجتهادى الخاص فى تفسيرها، واستطاعت أن تجعل الأجيال من بعدها تشعر شعوراً قوياً بروحها الجرئية المسيطرة على ما أثر عنها من نشاط فكرى فى التفسير والفقہ.

وكانت السيدة عائشة تجتهد فى تفسيرها، وتجتهد فى فتياها، وكان هذا الاجتهاد منها يقوم على علمها الغزير الأصيل وعقلها ودكائها وروحها الجرئية، وقد تبدى هذا الاجتهاد فى كثير من الموضوعات، وفى إطار عدة مواقف.

١- موقفها العقلى من النص:

تقف السيدة عائشة أمام النص وقفة عقلية عميقة، تنفذ فيه، وتفحصه، وتقلبه على كافة وجوهه الممكنة، وتوسع مدى النظر إليه فتربطه بنص آخر متعلق به أو مشابه له، وتحاول أن تستنبط من ذلك كله المعانى والأحكام بفكرها الخالص واجتهادها الشخصى:

(أ) ففى تعرضها لتفسير قوله تعالى: «وإن خفتن ألا تقسطوا فى اليتامى» (١)، تربط بينه وبين قوله تعالى بعد ذلك فى نفس هذه السورة: ﴿ويستفتونك فى النساء﴾ (٢)، وتفحص النصين بدقة وعمق وأصالة فكرية، وتخرج بالنتائج الآتية:

١- أن المقصود بالنساء فى قوله تعالى: ﴿ويستفتونك فى النساء﴾، هن يتامى النساء، وذلك لأنها تقدر معنى هذه الآية على النحو الآتى: ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب يعنى أول هذه السورة حيث يقول تعالى: ﴿وإن خفتن ألا تقسطوا فى اليتامى﴾ الآية، وذلك فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن.

٢- ومعنى أن السيدة عائشة لحظت أن الآية مقصورة على يتامى النساء فقط، أنها ترى أنه يجوز زواج اليتيمة قبل البلوغ، وذلك على أساس أنها إذا بلغت صارت مطلق امرأة، لا يتيمة، ويؤكد هذا المعنى أن الآية لو كانت تقصد البالغة، لما نهى عن حطها عن صداق مثلها، لأن البالغة تملك حرية الاختيار والقبول والرفض، وهو المبدأ الذى قال به فيما بعد الإمام أبو حنيفة.

٣- كذلك فإن ملاحظة السيدة عائشة اقتصار الآية على يتامى النساء، تعنى أنها ترى أنه يجوز لغير اليتيمة أن تنكح بأدنى من صداق مثلها، على أساس أن الآية إنما خرجت فى يتامى النساء فقط، وغير اليتيمة لها من تستند إليه وتعتمد عليه فى إجابة رغباتها والمطالبة بحقوقها.

٤- وترى السيدة عائشة أيضاً أن اليتيمة إذا أقسط لها وليها فى صداقها جاز له أن يتزوجها، أى أن السيدة عائشة تجيز أن يكون الولى هو الناكح والمنكح فى نفس الوقت، وهو ما قال به الإمام أبو حنيفة فيما بعد.

٥- وترى السيدة عائشة كذلك «صداق المثل» والرد إليه فيما فسد من الصداق إذا وقع الغبن فى مقداره، وهى فى نفس الوقت تجيز تعدد مقادير الصداق وأنواعه وفق كل

(١) سورة النساء/ ٣

(٢) سورة النساء/ ١٢٧

صنف من الناس وكل مجتمع حسب أحوالهم المادية ومراتبهم الاجتماعية، وهو المبدأ الذى قال به فيما بعد الإمام مالك .

٦- وأخيراً تربط السيدة عائشة بين هاتين الآيتين وتوضح علاقة كل منهما بالأخرى، فتذكر أنهم نهوا أن ينكحوا من رغبوا فى مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن حين يكن قليلات المال والجمال، فكما يتركون اليتيمة حين يرغبون عنها لقلّة مالها وجمالها، فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها لمالها وجمالها إلا أن يقسطوا لها الأوفى من صداق مثلها ويعطوها حقها كاملاً .

(ب) وفى تعرضها لتفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ (١) - ترى السيدة عائشة أن كل شراب يكون عاقبته كعاقبة الخمر فهو حرام كتحرير الخمر، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى لم يحرم الخمر لاسمها، وإنما حرمها لعاقبتها، ولذلك قالت لمن كانوا يكثر من سؤالها عما يسكر وما هو محرم: «لا أحل مسكراً وإن كان ماء» (٢)، وهكذا أوضحت أن كل وسيلة لحرام فهي حرام، ووضعت بذلك أساس القاعدة الفقهية التى تقول: إن الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة، ومن هنا جاء تحريم أشياء عديدة من أجل تضييق المسالك المفضية إلى الحرام، وقطع الطريق على الوسائل المؤدية إليه . وبذا خالفت السيدة عائشة الفقهاء الذين قالوا: إن الأحكام مبنية على الظاهر لا على الظنون، وقامت مخالفتها على أساس أنها ترى ضرورة سد الذريعة وحسم التوهم، وخاصة فى مثل هذه القضايا الشرعية الوعرة، بعد أن فهمت بعمق لماذا جعل الرسول ﷺ التعرض لسب الأبناء كسب الآباء، ولماذا لعن اليهود إذا أكلوا ثمن ما نهوا عن أكله، ولماذا نهى أبو بكر عن الجمع بين متفرق أو التفرقة بين الجمع خشية الصدقة (٣)، ولماذا حرم الخلوة بالأجنبية وإن كان الرجل عنيماً، وكل هذا يمائل تماماً فى الحكمة التشريعية فى تحريم قليل الخمر وإن كان يسكر، فكل هذه المنوعات منعها الشرع بسبب

(١) سورة المائدة/ ٩٠

(٢) النساءى ٨/ ٣٢٠

(٣) وذلك فى زكاة الخلطة من الماشية .

إنها ذرائع للمحرمات، ومن هنا قالت السيدة عائشة في فتياها بتحريم أى شىء يؤدى إلى الحرام وذلك لتقطع سبله وتسد طرقه .

(ج) وفى تفسيرها لقوله تعالى: ﴿يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا* وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾^(١). تقف السيدة عائشة أمام هذا النص نظرتها العقلية الدقيقة، وتنظر إلى ما حدث من النبى ﷺ أبان حادث الاعتزال وأنه خير أزواجه فاخترته فلم يعد طلاقاً^(٢)، فتخرج بالتأنيب الآتية:

١- أن تخيير المرأة ليس بشىء .

٢- وأنه لا يعد طلاقاً لأن النبى ﷺ خيرهن بين الدنيا والآخرة ولم يخيرهن الطلاق .

٣- وأن التخيير لا يكون طلاقاً إلا بالنية، لأن الله سبحانه هو الذى أمر نبيه ﷺ بهذا التخيير وقد فهمت ذلك من قوله تعالى فى أول الآية: ﴿يا أيها النبى قل لأزواجك﴾ .

٤- وأن المخيرة إذا اختارت زوجها لم يكن ذلك طلاقاً أيضاً .

٥- أما اختيارها نفسها فيوجب الطلاق، لأن النبى ﷺ حينما خيرهن اخترته فلم يعده طلاقاً، ولو كن اخترن أنفسهن لكان ذلك طلاقاً .

وهكذا نرى كيف كان التدقيق العقلى والاجتهاد الفكرى للشخصى للسيدة عائشة، فهى تقف أمام النص وقفة عقلية عميقة، وتبرز نتيجة جهدها الذهنى الشديد فى تفهم الآية، وما ترمى إليه، وما يمكن استنباطه منها من أحكام، وما يمكن الخروج به منها من اجتهادات .

ولعلنا لاحظنا بوضوح أن النظرة العقلية التى تنظر بها السيدة عائشة إلى النص، هى نظرة فقهية فى المقام الأول، ولاحظنا أيضاً أن السيدة عائشة لها آراؤها الفقهية الخاصة

(١) سورة الأحزاب/ ٢٨ - ٢٩

(٢) مسلم ٨٠/١٠

التي اجتهدت فيها وانفردت بها وكانت رائدة في المسألة. ويمتاز تفسير السيدة عائشة بوفرة ما يحتويه من النظرات العقلية الفقهية العميقة، التي تفرض شخصيتها صاحبها الناقدة المتأمل، الفاحصة الواعية، وثبت علمها وقوة فكرها.

ولقد كانت السيدة عائشة دقيقة في آرائها الفقهية، ومن ذلك مثلاً أنها نظرت في قوله تعالى: ﴿قل لا أجد في ما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾^(١). قرأت أنه لا بأس بلحوم السباع، وذلك لأن المحرم هو ما حصرته هذه الآية، فلا يحرم إلا ما فيها، وفي نفس الوقت فقد تضمنت هذه الآية حلَّ كل شيء من الحيوان والطيور عدا ما استثنى فيها، ومن هنا رأت حل كل مسكوت عنه فيها إلا ما دل عليه دليل. وعلى الرغم من تحريم الرسول ﷺ لكل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، إلا أن السيدة عائشة تمسك بالضرورة والحاجة، وتعتمد على قوله تعالى: ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾، فالضرورات تبيح المحظورات، ورحمة الله وسعت كل شيء.

والسيدة عائشة ترى أيضاً رضاع الكبير وكانت تأمر أختها أم كلثوم بنت أسى بكر الصديق وبنات أخيها أن يرضعن من أحب أن يدخل عليها من الرجال، وأبى سائر أزواج النبي ﷺ أن يدخل عليهن بتلك الرضاعة أحد من الناس^(٢)، وكانت نقطة الخلاف بين السيدة عائشة وأمّهات المؤمنين أنها كانت تمسك بما أمر به رسول الله ﷺ في قضية سالم مولى أبي حذيفة، وكان أبو حذيفة قد تبنى سالماً ونسبه إليه، فلما نزل قوله تعالى: ﴿ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تكونوا تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾^(٣) تغير وجه أبى حذيفة من وجود سالم في بيته مع امرأته والبسيت ضيق، فذهبت امرأة أبى حذيفة وهي سهلة بنت سهيل إلى النبي ﷺ وأخبرته بالأمر، فأمرها أن ترضع سالماً فيكون ولدها بالرضاع، وقد تعجبت سهلة من

(١) سورة الأنعام/ ١٤٥

(٢) مسلم ٣٣/١٠

(٣) سورة الأحزاب/ ٥

ذلك لأن سالما كان رجلا كبيراً وليس طفلاً، ولكن النبي ﷺ أمرها بإرضاعه (١).

وتمسكت السيدة عائشة بهذه السنة، وكانت ترى أنها محكمة وليست منسوخة، وأنها عامة وليست خاصة، وخالفت بذلك سائر أمهات المؤمنين اللاتى رأين أن هذه كانت رخصة لسالم وحده.

ولكن اجتهاد السيدة عائشة قد جانبه التوفيق فى بعض المسائل، ومن ذلك مثلاً أنها ترى أن المستحاضة لا يأتيها زوجها (٢)، وقد جانبها الصواب فى ذلك، وذلك لأن المستحاضة تصلى وتصوم وتعتكف، وتقرأ القرآن وتمس المصحف وتحمله، ومن كانت لها حكم الطهارات فى أغلب أحكام العبادة التى تؤدبها فى حق الله عز وجل، فإنها طاهرة لزوجها وله أن يأتيها، ومن ناحية أخرى فإن التحريم لا يثبت إلا بالشرع، ولم يرد الشرع بتحريم ذلك (٣). وعلى الرغم من أن أغلب روايات حرب الجمل متناقضة ومضطربة وموضوعة، فمما لاشك فيه أن السيدة عائشة اعتمدت على تأويلها لبعض الآيات (٤) فى تدخلها السياسى، وبررت بها خروجها للحرب والقتال.

(ب) موقفها من القراءات:

نعلم أن السيدة عائشة كان لها مصحف خاص بها، وقد وصلتنا عنه بعض المعلومات ومنها أن الذى كتبه لها هو مولاها أبو يونس (٥)، وقد تكون هى التى كتبه بنفسها (٦)، وأنه كان يتضمن بعض القراءات الخاصة بها (٧) وربما كان ترتيب السور فيه مغايراً لترتيب

(١) مسلم ٣١/١٠ - ٣٣

(٢) الدارمى ٢٠٨/١

(٣) مسلم ١٧/٤

(٤) ومن هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾ - سورة النساء/ ١١٤، وقوله تعالى: ﴿الم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم﴾ - سورة آل عمران/ ٣٣ (انظر فى ذلك: تاريخ الطبرى ١٧٤/٥، ١٧٥، ١٨١).

(٥) مالك/ رواية يحيى/ ١٣٨ - ١٣٩، المصاحف ٨٤

(٦) عبد الرزاق ١/٥٧٨/٢٢٠٢

(٧) تفسير الطبرى ٥/ ٢٨٠. مالك/ رواية يحيى/ ١٣٨ - ١٣٩.

مصحف عثمان(١)، وقد رآه عروة بن الزبير وقرأ فيه(٢) وكذلك حميدة بنت أبي يونس(٣)، وقبيصة بن ذؤيب(٤).

وقد عد أبو عبيد في كتابه «القراءات» السيدة عائشة ضمن القراء من أصحاب النبي (ﷺ)(٥)، إلا أننا لم نجد فيما جمعنا لها مما أثر عنها من روايات سوى بعض القراءات القليلة، التي قد تكون من توجيهها أو ترويتها عن رسول الله ﷺ. وهي في هذا أو ذاك أحادية لم تتواتر قرآنتها ولا تجوز القراءة بها.

ويبدو أن أكثر ما نسب إلى السيدة عائشة من قراءات لا يعد من القراءات، وإنما هو توجيه تفسيري. ومن ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾(٦)، فقد قالت عائشة: «إلا أوثاناً»، وعد الطبري هذا قراءة لها(٧)، والحقيقة أنه ليس قراءة، وإنما هو تفسير، كما لاحظ ابن أبي حاتم(٨)، فالسيدة عائشة فسرت الإناث هنا بالأوثان، وذلك بناء على أن مشركي العرب كانوا يسمون الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله بأسماء الإناث - كالكلمات والعزى ونائلة ومناة - وكان لكل حي منهم صنم يعبدونه ويقولون عنه أنثى بنى فلان، وعلى هذا الأساس فسرت السيدة عائشة الإناث في هذه الآية بالأوثان، فهو تفسير منها وليس قراءة.

ومن ذلك أيضاً ما جاء عنها من أنها قرأت قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾(٩)، على ثلاث هيئات(١٠). الأولى، «حافظوا

(١) عبد الرزاق ٣/٢٥٢/٥٩٤٣

(٢) عبد الرزاق ١/٥٧٨/٢٢٠١، المصاحف ٨٣

(٣) تفسير الطبري ٢/٥٥٥، المصاحف ٨٤

(٤) المصاحف ٨٤ - ٨٥

(٥) الالتقان ١/٢٤٨ - ٢٤٩

(٦) سورة النساء/ ١١٧

(٧) تفسير الطبري ٥/ ٢٨٠

(٨) تفسير ابن كثير ٢/٣٦٧

(٩) سورة البقرة/ ٢٣٨

(١٠) تفسير الطبري ٢/٥٥٥، وانظر: المصاحف ٨٣ - ٨٥

على الصلوات والصلوة الوسطى صلاة العصر وقوموا لله قانتين»، والثانية. «حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وهى صلاة العصر وقوموا لله قانتين»، والثالثة. «حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين».

والواقع أن هذه الهيئات الثلاث هيئات تفسيرية وليست من القراءات فى شىء، وهى تدخل فى باب الزيادات التفسيرية المدرجة، جريباً على عادة المفسرين الأوائل ورواة الحديث. وليس هذا بالغريب وقد عهدنا ذلك منهم كثيراً. فالسيدة عائشة تفسر الصلاة الوسطى فى هذه الآية بأنها صلاة العصر، ويؤكد ذلك قولها فى الهيئة الثانية: «وهى صلاة العصر»، وهذا التفسير منها يتفق مع تفسير النبى ﷺ للصلاة الوسطى بأنها صلاة العصر، وقد ورد أكثر من حديث نبوى صحيح يؤكد ذلك^(١).

وإذا كانت الواو الموجودة فى الهيئة الثالثة قد أثارت مشكلة عند بعض العلماء إذ عدوها عاطفة على ما قبلها وأنها تقتضى المغايرة، الأمر الذى جعلهم يرون أن السيدة عائشة تفسر الصلاة الوسطى بأنها صلاة الظهر، على أساس أن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين، فهى وسط النهار باعتبار طلوع الفجر أوله^(٢). فهذه الواو إما أن تكون عاطفة - كما قالوا - ولكن للصفات لا للذوات، كما فى قوله تعالى. ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ الذى خلق فسوى * والذى قدر فهدى * والذى أخرج المرعى^(٣)، وكما فى قوله تعالى عن رسوله ﷺ. ﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾^(٤)، وكما نجد فى لسان العرب أيضاً فقد أجاز سيويه قول القائل. «مررت بصاحبك وأخيك»، ويكون الصاحب هو نفسه الأخ. وإما أن تكون هذه الواو زائدة، كما فى قوله تعالى. ﴿وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين﴾^(٥)، وقوله عز وجل. ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾^(٦). وفى كلتا الحالتين تدخل

(١) مسلم ١٢٧/٥ - ١٢٨

(٢) انظر فى ذلك: تفسير القرطبي ٢٠٩/٣، وتفسير ابن كثير ٤٢٩/١.

(٣) سورة الأعلى / ١ : ٤

(٤) سورة الأحزاب / ٤٠

(٥) سورة الأنعام / ٥٥

(٦) سورة الأنعام / ٧٥

هذه الواو في باب الزيادة التفسيرية . ومما يدعم هذا الرأي ما ثبت من أنه نزل أولاً : «حافظوا على الصلوات وصلاة العصر»، وقرأت هكذا على عهد رسول الله ﷺ ما شاء الله، ثم نسخها الله عز وجل بعد ذلك، فأنزل: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى»، كما يروى مسلم عن البراء بن عازب^(١)، وكما صرحت السيدة عائشة نفسها بذلك أيضاً^(٢). فيحتمل أن السيدة عائشة أمرت مولاهما أبا يونس - حين كان يكتب لها المصحف - أن يثبت النصين الناسخ، والمنسوخ، وذلك كزيادة تفسيرية لا كقراءة، وهذا إنما تم في مصحفها الخاص بها؛ ويجوز في مصاحف الصحابة الخاصة بهم أن تتمثل فيها مثل هذه الأضواء من أنشطتهم الفكرية القائمة على أسس من الحرية العلمية الأمانة .

وهكذا كان ما نسب إلى السيدة عائشة من أنه قراءة هو تفسير في الحقيقة، والأمثلة كثيرة على هذا فمثلاً في قوله تعالى . ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا﴾^(٣)، قرأت السيدة عائشة «كذبوا» بالتشديد، والمعنى عندها على هذا: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم بهم، وأيقنوا أن قومهم قد كذبوهم فيما جاءوهم به من عند الله حينئذ جاءهم نصر الله . والحقيقة أن السيدة عائشة كانت تريد أن تدفع ما يمكن أن يتوهم من تفسير قراءة التخفيف بأن الرسل قد أيقنت أن الله - وحاشا له - كذبهم فيما وعدهم به من النصر . وقد نسب إلى ابن عباس أنه قال . «كانوا بشرأ ضعفوا وبأسوا»^(٤)، ونسب إليه أنه أيد رأيه ذلك بقوله تعالى . ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾^(٥)، وتابعه على ذلك الرأي تلميذه سعيد بن جبير الذي قال «ألم يكونوا بشرأ؟»^(٦) وعندما سأل عروة بن الزبير في ذلك خالته السيدة عائشة أنكرت هذا المعنى إنكاراً شديداً، وقرأت الآية بالتشديد، وقال . «معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها»^(٧). ومن الطبيعي أن

(١) مسلم ١٣١/٥

(٢) تفسير الطبري ٥٥/٢

(٣) سورة يوسف/ ١١٠

(٤) تفسير الطبري ٨٦/١٣

(٥) سورة البقرة/ ٢١٤

(٦) تفسير الطبري ٨٦/١٣

(٧) البخاري ٢٦٢/٥

قراءة الجمهور أولى بالاتباع وأحق، وذلك لتواترها وحجيتها أولاً، ولقد قرر الجمهور أن معنى هذه الآية على قراءتهم التخفيفية: حتى إذا استيأس الرسل أن يؤمن بهم قومهم، وظن أقوام الرسول أن الرسل كذبوا عليهم فيما كانوا قد أخبروهم به من أن الله وعدهم بأن يعذب أقوامهم إذا كفروا بهم، حينئذ جاءهم نصر الله.

فاجتهاد السيدة عائشة في هذا الصدد لا يعد قراءة للكلمة بقدر ما يعد تفسيراً لمعناها، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾^(١)، فقد قرأته: «يطوقونه»، بفتح الطاء مخففة وتشديد الواو، وذلك بمعنى «يكلفونه»، تريد بذلك أن للشيخ الكبير والشيخة اللذين كبر سنهما واشتد عليهما الصوم فلا يستطيعانه، أن يفطرا ويطعما مكان كل يوم أفطراه مسكينا. ومعنى هذا أنها ترى أن الآية ثابتة الحكم منذ نزلت، وأنها محكمة غير منسوخة. وأصل المسألة أنه لما نزل قوله تعالى ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾، كان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكينا مكان اليوم الذى أفطره، فلما نزل قوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾^(٢)، اختلف المفسرون والفقهاء فى ذلك: فذهب بعضهم إلى أن قوله: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾، محكم ولم ينسخ، وأن من لم يقدر على الصوم لكبر سنه أو لمرضه، أفطر وأطعم فى كل يوم يفطره مسكينا، ومن هؤلاء: السيدة عائشة، وعلى بن أبى طالب، وابن عباس، وعطاء بن أبى رباح، وطاوس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد^(٣). وذهب بعض الفقهاء إلى أن قوله تعالى: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ منسوخ بقوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾، ومنهم ابن عمر، وسلمة بن الأكوع، وابن مسعود، وعلقمة، وعبيدة^(٤). والحقيقة أن النسخ ثابت فى حق الصحيح المقيم بإيجاب الصوم عليه، وأما الشيخ الفانى الذى لا يستطيع الصوم فله أن يفطر ولا قضاء عليه، وأن يطعم عن كل يوم مسكينا، وهذا رأى الجمهور^(٥).

(١) سورة البقرة/ ١٨٤

(٢) سورة البقرة / ١٨٥

(٢) تفسير الطبرى ١٣٧/٢ - ١٣٩

(٣) تفسير الطبرى ١٣٣/٢ - ١٣٥، تفسير ابن كثير ٣٠٨/١

(٤) تفسير الطبرى ١٣٤/٢، تفسير ابن كثير ٣٠٨/١

(٥) تفسير الطبرى ١٣٤/٢، تفسير ابن كثير ٣٠٨/١

وهكذا لم تكن مثل هذه الاجتهادات من السيدة عائشة قراءة للكلمة القرآنية وإنما كانت تفسيراً لها، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلْقَوْنَهُ بِالسَّتْكِمْ﴾^(١)، فقد قرأته «تلقونه» بفتح الـتاء وكسر اللام وضم القاف، وكانت تقول فى ذلك: «الولق: الكذب»^(٢)، فهى إذا تفسر ولا تقرأ، وترى أن الكلمة من ولق القول يعنى الكذب الذى يستمر عليه صاحبه، تقول العرب ولق فلان فى السير إذا استمر فيه .

وعلى كل حال فإن قراءات السيدة عائشة هى قراءات أحادية خاصة بها، وتخالف المصحف الإمام الذى أجمعت عليه الأمة، ولا يثبت بخبر الواحد قرآن، ولذا لم يثبتها عثمان فى المصحف الإمام، ولم يقرأ بها أحد من القراء الذين تثبت الحجة بقراءاتهم . حتى القراءة التى تروىها عن النبى ﷺ تلحق بهذا الحكم، مثل قولها إن النبى ﷺ قرأ: «فروح وريحان»^(٣) بضم الراء، فعلى الرغم من أننا نثق بالسيدة عائشة ثقة مطلقة إلا أن قراءة الأحاد ليست قرآناً، ولا تثبت قرآناً .

ولقد حمل على السيدة عائشة الكثير من القراءات التى اتضح لى بعد بحثها أنها إما ضعيفة وإما موضوعة، ومن ذلك ما رواه الطبرى فقال: حدثنا ابن وكيع قال: حدثنا محمد بن بشر، عن نافع، عن ابن عمر، عن ابن أبى مليكة قال: قالت عائشة: «كان الحواريون لا يشكون أن الله قادر أن ينزل عليهم مائدة ولكن قالوا: يا عيسى هل تستطيع ربك»^(٤) بـتاء المضارعة فى الفعل ونصب ربك على المفعولية، بمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك؟ وهذه الرواية ضعيفة، لأن فيها ابن وكيع وهو متهم بالكذب^(٥) .

ومن ذلك أيضاً ما رواه الطبرى فقال: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا أبو معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه، أنه سأل عائشة عن قوله تعالى: ﴿والمقيمين الصلاة﴾^(٦)،

(١) سورة النور/ ١٥

(٢) البخارى ٦/ ٣٥٠

(٣) سورة الواقعة / ٨٩

(٤) الطبرى ٧/ ١٢٩، وانظر القرطبي ٦/ ٣٦٥، وسورة المائدة / ١١٢

(٥) تهذيب التهذيب ٤/ ١٢٤

(٦) سورة النساء/ ١٦٢

وعن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِثُونَ﴾^(١)، وعن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾^(٢)، فقالت: «يا ابن أخي، هذا عمل الكُتَّاب، أخطأوا في الكتاب»^(٣). فهذه الرواية ضعيفة أيضاً، لأن في سندها ابن حميد، وهو كثير المناكير، وكان يتعمد الكذب^(٤).

ومن ذلك أيضاً ما رواه الحاكم قال: حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن بالويه، حدثنا أحمد بن علي الجزار، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا المعافى بن عمران، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، عن يحيى بن عروة، عن الزبير، عن عروة، عن عائشة رضی الله عنها، عن النبي ﷺ أنه كان يقرأ: «وما هو على الغيب بظنين»^(٥)، فهذه الرواية ضعيفة، لأن فيها إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة الذي قال عنه ابن خراش: إنه كذاب، وقال الإمام أحمد: «لا تحل الرواية عنه»، وجابهه الزهري بقوله: «قاتلك الله يا ابن أبي فروة، ما أجرأك على الله»^(٦).

هذه أمثلة مما نحل على السيدة عائشة من القراءات، وقد رأينا أنها ضعيفة أو موضوعة وذلك بالنظر إلى أسانيدھا، وإذا نظرنا إلى متونها وجدنا الضعف يعتورها أيضاً، فليس لأحد أن يدعى أن القرآن الكريم به كلمات مكتوبة خطأ أو ملحونة، لأن ذلك يخالف المصحف الإمام الذي أجمعت الأمة الإسلامية على صحته وتقبلته بالرضا والاطمئنان، ولأن الصحابة رضوان الله عليهم لو كانوا قد وجدوا فيه اختلافاً ينكرونه، لكانوا أول من صاحوا به، وقوموه، وعلموه للمسلمين على وجه الصواب، ولكن احترام الصحابة للمصحف الإمام، وعدم إنكارهم لشيء مما جاء فيه، وتلقينهم للمسلمين كلماته كما وردت فيه، دليل على أنها نزلت هكذا وأن لها مخرجا لغويا، أو لها علة يعلمها الله.

(١) سورة المائدة/٦٩

(٢) سورة طه / ٦٣

(٣) الطبري ٦/٢٥، وانظر القرطبي ٦/١٤

(٤) تهذيب التهذيب ٩/١٢٩ - ١٣٠

(٥) الحاكم ٢/٢٥٢

(٦) تهذيب التهذيب ١/٢٤٠ - ٢٤١

ويبدو لى - والله أعلم - أن مثل هذه الروايات الضعيفة أو الموضوعية فى القراءات، التى نسبت إلى السيدة عائشة، قصد بها التشكيك فى عمل عثمان والإثارة ضده، وإستغلال العداء الذى كان بين عائشة وعثمان فى ذلك، عن طريق إظهار الاستياء من أن الكتاب أخطأوا - ليس فى القرآن، ولا فى كتابة بعض كلماته - وإنما أخطأوا فى اختيار الأولى من الأحرف التى نزل بها القرآن، أو أنهم كتبوا بلغتهم وعلى قراءتهم.

ج- موقفها من الناسخ والمنسوخ:

عما لا شك فيه أن السيدة عائشة كانت على علم واف بما وقع من نسخ سواء كان فى القرآن أم فى السنة، ولكننا لم نعر لها إلا على روايات قليلة فى هذا الشأن تتعلق بالتفسير، من مثل قولها: نزلت: «فعدة من أيام آخر متابعات»، فسقطت «متابعات»، تقصد: فنسخت كلمة متابعات^(١). وكذلك قولها إن الله عز وجل افترض قيام الليل فى أول المزمّل، وبعد مرور عام أنزل الله فى آخر هذه السورة نفسها «التخفيف» أى الناسخ، وهو قوله: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل﴾. . الآية^(٢)، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة^(٣).

ولعل قلة مسائل النسخ فى تفسير السيدة عائشة يرجع إلى أنها كانت تعمل بالمحكم، وترى أن المنسوخات قضايا «تاريخية» بعيدة عن اهتمامها الفقهي الذى لا يمكن أن يقوم إلا على المحكم الثابت. ولذلك لم تتكلم فى هذا الموضوع إلا قليلاً وفيما يمس الجوانب الفقهية، ولكنها أثارَت قضية هامة وغريبة، وهى قضية منسوخ الحكم والتلاوة جميعاً التى لم يأت أحد بأى مثال لها إلا السيدة عائشة وحدها^(٤)، ولقد أتت فيها بمثال واحد فقط هو المتعلق بالرضاعة، تقول السيدة عائشة: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفى رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن»^(٥).

(١) الدارقطنى ١/٢٤٣

(٢) سورة المزمّل / ٢٠

(٣) مسلم ٢٥/٦ - ٢٦

(٤) الاتقان ٣/٧٠ - ٧١

(٥) مسلم ١٠/٢٩

وهنا يدور الإشكال على هذه المحاور:

أن الرضعات العشر منسوخة بالخمس، وأن السيدة عائشة لا تصرح بأن الخمس منسوخة، وذلك على الرغم من أن قضية التحريم بالرضاع تركت متحدة مع قضية التحريم بالولادة في آية واحدة (١)، إلا أن السيدة عائشة كانت تفتي بالمنسوخ (٢)، في حين اختلف الفقهاء اختلافاً كبيراً في عدد الرضعات التي تحرم (٣)، مما يؤكد أن القولين نسخاً جميعاً حكماً وتلاوة، لأن القرآن لا يثبت بالاختلاف فيه وإنما يثبت بالتواتر بلا خلاف.

ويبدو أن السيدة عائشة تقصد بقولها إن النبي ﷺ توفي وهن فيما يقرأ من القرآن، أن ذلك حكاية عن أن النسخ تأخر نزوله جداً حتى أن النبي ﷺ توفي ولم يكن النسخ قد بلغ كل الناس بعد، فكان هؤلاء يقرأون خمس رضعات ويجعلونها قرآناً، فلما بلغهم النسخ بعد ذلك رجعوا وأجمعوا على أنه لا يتلى.

أما من ناحية أن السيدة عائشة كانت تفتي بأن الرضعات الخمس يحرم، فذلك من باب الاجتهاد، وقد تمسكت هنا بحديث النبي ﷺ في سالم مولى أبي حذيفة حيث قال صلوات الله وسلامه عليه لسهلة بنت سهيل أن ترضع سالماً خمس رضعات فتحرم عليه ويحرم عليها، فاعتمدت السيدة عائشة على ذلك، ورأت أن الحديث غير منسوخ وأنه ليس رخصة لسالم وحده - كما قالت سائر أمهات المؤمنين - بل هو سنة عامة ثابتة (٤).

وكما حمل على السيدة عائشة في القراءات حمل عليها أيضاً في النسخ، ومن أخطر ما حمل عليها في ذلك ما ذكره الطبري قال: حدثنا أحمد بن الهيثم بن خالد قال: حدثنا ابن أبي مريم، عن ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة، عن عائشة قالت:

(١) هي الآية رقم ٢٢ من سورة النساء

(٢) الترمذى ٣٠٨/٤ - ٣٠٩

(٣) تفسير القرطبي ١٠٩/٥ - ١١١

(٤) مسلم ٣١/١٠ - ٣٣، مالك - روية محمد بن الحسن ٢٠٩، ورواية يحيى ٦٠٣، ٦٠٥، ٦٠٦

«كانت سورة الأحزاب تعدل^(١) على عهد رسول الله ﷺ مائتي آية، فلما كتب المصحف لم يقدر منها إلا على ما هي الآن». وهذه الرواية موضوعة فمن رواها عبد الله بن لهيعة وهو «ضعيف لا يحتج بحديثه»، كما قال ابن عين، وقال الجوزجاني: «كثرت المناكير في روايته لتساهله»، وقال ابن حبان: «يدلس عن أقوام ضعفاء على أقوام ثقات»، وقال الخطيب، «لا يوقف على حديثه ولا ينبغي أن يحتج به ولا يفتخر بروايته»^(٣). هذا فضلاً عن أن ضمن رواها أحمد بن الهيثم بن خالد وهو مجهول.

ومن هذه الروايات الموضوعية أيضاً ما رواه السيوطي قال: قال أبو عبيد: حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرني ابن أبي حميد، عن حميدة بنت أبي يونس قالت: قرأ على أبي وهو ابن ثمانين سنة في مصحف عائشة: «إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً وعلى الذين يصلون الصفوف الأول»، قالت: قبل أن يغير عثمان المصاحف^(٤). وهذه الرواية موضوعة أيضاً، لأن في سندها محمد بن أبي حميد، قال عنه البخاري وابن معين وأبو حاتم: «منكر الحديث» وقال النسائي: «ليس بثقة»، وقال أبو داود والدارقطني: «ضعيف»، وقال ابن حبان: «لا يحتج به»^(٥).

وهناك رواية عند ابن ماجه: حدثنا أبو سلمة يحيى بن خلف، حدثنا عبد الأعلى، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عمرة، عن عائشة، وعن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة قالت: «لقد نزلت آية الرجم ورضاعة الكبير عشراً، ولقد كان في صحيفة تحت سريري، فلما مات رسول الله ﷺ وتشاغلنا بموته دخل داجن فأكلها»^(٦).

(١) في رواية السيوطي في الاتقان ٨٢/٣ «تقرأ»

(٢) القرطبي ١١٣/٤، الاتقان ٨٢/٣

(٣) تهذيب التهذيب ٣٧٨/٥ - ٣٧٩

(٤) الاتقان ٨٢/٣

(٥) تهذيب التهذيب ١٣٣/٩

(٦) ابن ماجه ٣٠٦/١ - ٣٠٧، أحمد ٢٦٩/٦، الدارقطني ٢/٥٠٠

وعلى الرغم من أن سند هذه الرواية حسن، فإن معناه أن آية الرجم وآية رضاع الكبير عشراً قد نسختا، ولا معنى لأكل الداجن لها فهذا هو الوضع في الرواية، ومن المعروف أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، وقد اختلف شكل آية الرجم فرواية تذكر قيد الزنا بعد ذكر الشيخ والشيخة، وأخرى لا تذكره، ورواية تذكر عبارة «نكالا من الله» وغيرها لا تذكرها، وما هكذا تكون نصوص الآيات القرآنية^(١). ولو كانت غير منسوخة لأثبتها عمر، ولكنه قال: «لولا أن يقال زاد عمر في كتاب الله»^(٢). وقد أجمع العلماء ومنهم الزمخشري وابن حزم على أن القول بأن الداجن أكلتها من وضع الملاحدة والروافض^(٣). فهذا الحديث موضوع أيضا بدلالة الضعف الشديد في متنه.

د - موقفها من المحكم والمتشابه:

لم تتعرض السيدة عائشة في تفسيرها لأي آية من الآيات المتشابهات، وابتعدت عنها تماماً، وهى بذلك تعبر عن روح عصرها فى تجنب الخوض فى المتشابه، ونحن نعرف موقف عمر بن الخطاب المتشدد من صبيغ الذى قدم المدينة وجعل يسأل عن متشابه القرآن، وكيف قسا عليه عمر وضربه ونفاه^(٤).

لذلك وقفت السيدة عائشة موقفاً متهيئاً من قوله تعالى: ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمناً به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾^(٥).

وقالت السيدة عائشة عن الراسخين فى العلم أنهم «لم يعلموا تأويله»، ومعنى هذا أنها ترى أن الوقف فى الآية على لفظ الجلالة، وأن الواو للاستئناف، وأن ما بعدها

(١) النسخ فى القرآن - د. مصطفى زيد ٢٨٣/١

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٦

(٣) الإحكام فى أصول الأحكام ٧٨/٤، الكشاف ٤١٠/٣

(٤) الاتقان ٨/٣ - ٩

(٥) سورة آل عمران/٧

كلام مقطوع عما قبله الذى تم عند قوله: «إلا الله»، وأن «الراسخون» مرفوعة بالابتداء، وخبره «يقولون آمنا به».

وهكذا كانت السيدة عائشة ترى أن التشابه اختص الله وحده بعلمه، ولا يمكن لأحد أن يعلم تأويله، حتى الراسخين فى العلم ليس لهم إلا أن يؤمنوا به كما يؤمنون بالمحكم.

هـ- موقفها من الإسرائيليات:

ومن الجدير بالتنويه هنا أنه لما كان تفسير السيدة عائشة ينزع فى الأصل منزعاً فقهياً، فهو إذاً مختص بالمحكم، لأن آيات الأحكام من الآيات المحكمات بلا خلاف، وفى المحكم لا يوجد أى لون من ألوان الإسرائيليات، وعلى هذا الأساس جاء تفسير السيدة عائشة خالياً تماماً من الإسرائيليات.

و- موقفها من علماء عصرها:

كانت السيدة عائشة تعد عند كبار مفسرى عصرها ومحدثيه وفقهائه المرجع العلمى الأصيل، فقد كانوا يرجعون إليها فيما يغمض عليهم أو يستشكل أمامهم من مسائل وأقضية فى القرآن والحديث والفقه، يقول مسروق: «أى والذى نفسى بيده، لقد رأيت مشيخة أصحاب محمد ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض»^(١)، ويقول أبو موسى الأشعري: «ما أشكل علينا - أصحاب رسول الله ﷺ - حديث قط فسألنا عائشة، إلا وجدنا عندها منه علماً»^(٢)، حتى القضاة كانوا يجتمعون عندها لحل بعض القضايا^(٣).

ومن يتصفح تفسير السيدة عائشة تلفت نظره تلك الكثرة الهائلة من الأسئلة المتنوعة التى وجهت إليها من الصحابة والتابعين، وكيف كانوا يتجشمون السفر للقائها، وكيف كان من لم يستطع السفر منهم كتب إليها، وكيف كان الجميع يسلم بعلمها ويمثل لرأيها. وقد استدركت السيدة عائشة على عدد كبير من الصحابة فيما توهموا فى فهمه من مسائل الدين، وقد عرضنا طائفة من هذه الاستدراكات فيما سبق، وأكثر علاقات السيدة

(١) ابن سعد ٨/٥٤

(٢) الترمذى ١٠/٣٨٠

(٣) الأغانى ١٦/١٥٢

عائشة العلمية فى هذا الصدد كانت مع أربعة من كبار الصحابة وهم عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر، وأبو هريرة، وابن عباس، فقد استدركت على عمر فى بكاء أهل الميت عليه، وفى الغسل من التقاء الختانين، وفى جواز الصدقة على الرقيقة، وفى حل الطيب بعد الحلق للحاج، وفى طيب المحرم، وفيمن يدخل على المرأة قبلها، وفى الركعتين بعد العصر، وفى دخول الحمام للرجال والنساء^(١). واستدركت على عبد الله بن عمر فى عذاب الميت ببكاء أهله، وفى طيب المحرم، وفى عمرة الرسول فى رجب، وفى أجر متبع الجنائز، وفى قطع الخفين للنساء، وفى الوضوء من القبلة، وفى قوله فى موت الفجأة، وفى ترتيب آذان بلال وابن أم مكتوم، وفى عدة أيام الشهر، وفى روايته لحديث أهل القليب^(٢). واستدركت على أبى هريرة فى صوم من أدركه الفجر وهو جنب، وفى الشؤم فى ثلاثة، وفى عذاب امرأة فى هرة، وفى ولد الزنا، وفيمن لم يوتر فلا صلاة له، وفى سرد الحديث، وفى الوضوء من حمل الميت والغسل من تغسيله، وفى تحريم رواية الشعر، وفيمن كره لقاء الله، وفى قطع المرأة للصلاة، وفى المشى بنعل واحدة^(٣). واستدركت على ابن عباس فى تحريمه على مهدي الهدى ما يحرم على الحاج، وفى اشتراط الحل قبل الطواف، وفى صلاته مستقليا، وفى الركعتين بعد العصر، وفى كفن رسول الله ﷺ، وفى رؤية النبى ﷺ ربه، وفى وتر رسول الله ﷺ، وفى قراءته (كذبوا) مخففة^(٤).

هذه هى أهم موضوعات الحوار العلمى بين السيدة عائشة وهؤلاء الرهط الأربعة، وهى موضوعات نجد فيها الخصوبة العلمية ودقة التفكير وصواب النظر.

ولقد كانت السيدة عائشة تحترم علم غيرها وتقدره ولم تكن متكبرة بعلمها ولا مدعية فيما لا تعلمه، فكان من يسألها عن شئ لا تعرفه، دلته على من يعرفه بكل تواضع، فهذا شريح يسألها عن المسح على الخفين، فتقول له: ائت عليا فإنه أعلم منى^(٥). كما

(١) الإجابة ٧٦ : ٨٤

(٢) الإجابة ١٠٢ : ١١٠

(٣) الإجابة ١١٢ : ١٢٨

(٤) الإجابة ٨٧ : ١٠١

(٥) مسلم ٣ / ١٧٥

لم تكن تبخل بالنصيحة على من يتصدى للعلم والتعليم، فما هي تقول لعبيد بن عمير ابن قتادة وقد بلغها أنه يجلس إليه الناس: «إياك واهلاك الناس وتقنيطهم»^(١) فهي تحذره من إعلان الناس بالآراء المتشددة وتدله على يسر الإسلام وبساطته.

ز- موقفها التربوي في التعليم:

كانت السيدة عائشة تستخدم في تفسيرها بعض الأساليب التربوية الهامة، ومنها:

١- الاقناع العقلي: فهي لا تحاول أن تستميل من يسألها عاطفياً، أو توجيهه إجابة غير واقعية، وإنما تقنعه عقلياً وتوجيهه بالعلم والمنطق، وتقيم إجابتها على حجج قوية مستمدة من القرآن أو السنة الشريفة. فحينما سئلت عن متعة النساء، قالت: «بيني وبينكم كتاب الله»، وأتت بآية كريمة تدعم رأيها، فقُرأت قوله تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾^(٢)، ثم قالت بناء على حجتها القرآنية: «فمن ابتغى وراء ما زَوَّجَهُ اللهُ أو ما ملكه فقد عدا»^(٣)، فالمتعة ليست نكاحاً ولا ملك يمين. وحينما يسألها مسروق: «يا أمته، هل رأى محمد ربه؟»^(٤) تنكر ذلك أشد الإنكار، وتؤيد إنكارها، بقوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾^(٥)، وقوله عز وجل: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب﴾^(٦).

وحينما تقول لها أم سلمة: والله ما تطيب نفسي أن يرانى الغلام قد استغنى عن الرضاعة؟ قالت: ولم؟ جاءت سهلة بنت سهيل إلى رسول الله ﷺ: وسأقت الحديث^(٧).

٢- الأسلوب العملي: ويتضح ذلك حينما سئلت عن الغسل، فاستمرت وجعلت

(١) عبد الرزاق ١١/٢٢٨/٢٠٥٦.

(٢) سورة المؤمنون ٥ - ٦.

(٣) الحاكم ٢/٣٩٣.

(٤) البخارى ٦/١٧٥ - ١٧٦ (طبعة الشعب).

(٥) سورة الأنعام / ١٠٣.

(٦) سورة الشورى / ٥١.

(٧) مسلم ١٠/٣٢ - ٣٣.

سترا بينها وبين سائلها، وأرتهم كيفية الغسل الشرعي، فأفرغت على رأسها ثلاثاً^(١). وكذلك حينما دخلت عليها حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر وعليها خمار رقيق يشف عن جسدها، قامت فشققت عليها هذا الثوب الشفاف، وكستها ثوبا كثيفا، وقالت لها أما تعلمين ما أنزل الله في سورة النور؟^(٢) تقصد قوله تعالى: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾^(٣).

٣- الحوار الهادئ الجاد: ويتضح ذلك فى موقفها من عروة وقد سألها عن قوله تعالى: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا﴾^(٤)، فدار بينهما هذا الحوار الذى يتسم بالهدوء والجدية والوضوح والاختصار، وبدأه عروة بقوله:

- أكذبوا أم كذبوا؟

- كذبوا.

- فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم، فما هو بالظن؟

- أجل، لعمرى لقد استيقنوا بذلك.

- وظنوا أنهم قد كذبوا؟

- معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها

- فما هذه الآية؟

- هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن اتباعهم قد كذبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك^(٥).

ومثال آخر: كان عبد الله بن شهاب الخولانى نازلا على عائشة، فرأته إحدى جواربها، وقد أصبح فغسل ثوبه، فأخبرت عائشة، فاستدعته وقالت له:

(١) ابن سعد ٤٩/٨ - ٥٠

(٢) سورة النور/ ٣١

(٣) سورة يوسف / ١١٠

(٤) البخارى ٤٠٧٤/٢٦٦/٧

- ما حملك على ما صنعت؟

- رأيت ما يرى النائم فى منامه (يقصد الاحتلام).

- هل رأيت فيهما شيئاً؟

- لا.

- فلو رأيت شيئاً غسلته، لقد رأيتنى وإنى لاحكه من ثوب رسول الله ﷺ يابساً بظفري^(١).

وهكذا كانت السيدة عائشة فى محاوراتها القصيرة السريعة توضح المسائل، وتمحو الشك، وتهدى للصواب، وتوجز القول.

٤- أسلوب الاستفهام الانكاري: وتستخدمه السيدة عائشة كثيراً، وذلك لتشرك السائل معها فى التفكير، وتوقفه على أول الطريق الصحيح الذى يوصل إلى الجواب الصائب، ثم تظهر له الحقيقة وتوضحها وتقررهما، وتعلمه بذلك منهجاً من مناهج التفكير الإنسانى الذى يقود إلى المعرفة، وتجعله يثق فيها ويقتنع بها، فحينما يسألها سعد ابن هشام عن التبتل، تقول له، «أما سمعت الله عزوجل يقول: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾^(٢)؟ فلا تتبتل»^(٣)، وتقول له أيضاً: «أما تقرأ: ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة﴾^(٤)؟ فقد تزوج رسول الله ﷺ، وقد ولد له»^(٥)، وحينما يسألها عن قيام النبى ﷺ تقول له: «أأنت تقرأ: ﴿يا أيها المزمل﴾؟ وتشرح له^(٦). ويسألها عن خلق رسول الله ﷺ فتقول له: «أأنت تقرأ القرآن؟ فإن خلق نبى الله ﷺ كان القرآن»^(٧). ويسألها عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن صحة

(١) مسلم ٣/ ١٩٧

(٢) سورة الرعد / ٣٨

(٣) النسائى ٦/ ٦٠

(٤) سورة الأحزاب / ٢١

(٥) أحمد ٦/ ٩١

(٦) مسلم ٦/ ٢٥ - ٢٦

(٧) المصدر السابق نفسه

قول أبي هريرة: «من أصبح جنباً في رمضان أفطر ذلك اليوم»، فتقول له: «يا عبد الرحمن، أترغب عما كان رسول الله ﷺ يصنع؟» ثم توضح له الأمر (١). . . ويسألها مسروق: هل رأى محمد ربه؟ فتتكر ذلك وتقول له: «أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليم حكيم﴾» (٢). . . ويسألها مسروق أيضاً عن لين موقفها من حسان بن ثابت وهو الذى كان قد خاض فى الإفك. فيقول لها: «لم تأذنى له أن يدخل عليك وقد قال الله تعالى: ﴿والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾» (٣)، فقالت: «وأى عذاب أشد من العمي» (٤)، وحينما بلغها أن عبد الله بن عمرو يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رءوسهن، قالت: «يا عجباً لابن عمرو هذا أفلا يأمرهن أن يحلقن رءوسهن؟» (٥) ودخلت عليها حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر وعليها خمار رقيق يشف عن جيبها، فقامت فشقتة وقال لها: «أما تعلمين ما أنزل الله فى سورة النور؟» (٦)، وسألته معاذة: «ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة، فقالت لها: «أحرورية أنت؟» (٧). . . وهكذا. . .

٥- مراعاة الشعور: كانت السيدة عائشة كريمة الخلق فى معاملتها العلمية، فحين توضح لمن سألت النبي ﷺ عن غسل الحيضة تحدثها بصوت خفيض لا يسمعه غيرها، حتى لا تخرجها أو تضايق من قد يسمعها (٨). . . وحينما سألتها أبو سلمة بن عبد الرحمن عما يوجب الغسل، استنكرت عليه أن يتحدث فى هذا الموضوع وهو لم يبلغ بعد سن الرجال أو لم يصل بعد إلى درجة كبيرة من الفقه، ولكنها وضعت استنكارها فى صورة بلاغية جميلة، فقالت له: «أتدرى ما مثلك يا أبا سلمة؟ مثل الفروج يسمع الديكة تصرخ فيصرخ معها» (٩). . . وحينما سألتها عروة بن الزبير عن آية الصفا والمروة وأنها لا

(١) مالك - رواية محمد بن الحسن ١٢٣ - ١٢٤

(٢) سورة الشورى/ ٥١ وانظر مسلم ٨/٣

(٣) سورة النور/ ١١

(٤) البخارى ٦/٣٥١ - ٣٦٣١/٣٥٢

(٥) مسلم ١٢/٤

(٦) ابن سعد ٤٩/٨ - ٥٠

(٧) مسلم ٢٧/٤ - ٢٨

(٨) مسلم ١٥/٤ - ١٦

(٩) مالك - رواية محمد بن الحسن / ٥٠ - ٥١

توجب السعي، نهرته لأنه يخوض في الشرع بغير علم، وقالت له: «بئس ما قلت»، ولكنها عقبته على ذلك بقولها: «يا ابن أختي» لتلطف الاثر^(١)، وحينما وصل إلى علمها أن عبد الله بن عمر يروى أن النبي ﷺ قال: إن الميت يعذب ببكاء الحي، لم تفعل عليه ولم تتهمه بشيء، ولكنها قالت: «يغفر الله لأبي عبد الرحمن، أما أنه لم يكذب، ولكنه نسي أو أخطأ»^(٢). وحينما رأت أبا موسى الأشعري يتحرج في سؤالها، وشعرت أن هذا السؤال حساس ويتعلق بمسألة يتحرج منها الناس، دلته على طريقة السؤال، فذكرته بأنها أمه في الإيمان حتى تشجعه على السؤال وتعرفه أنها لن تخرج من الإجابة، فلا حرج في الدين ولا حرج في العلم، كما قررت له أنها أيضاً مثل أمه التي ولدته، حتى تزيل عنه الرهبة من سؤالها، وتفطنه إلى الحياء اللازم في خطاب الأم، فتقول له «لا تستحي أن تسألني عما كنت سائلاً عنه أمك التي ولدتك وإنما أنا أمك»^(٣). وحتى إذا أزعجها السؤال أو أثارها، لا تفعل على السائل، وإنما تعكس انفعالها وغضبها على نفسها. فحينما يسألها مسروق: هل رأى محمد ﷺ ربه؟ تقول له: «لقد قف شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب»^(٤). . . وحينما يصلها أن أبا هريرة يروى أن النبي ﷺ قال: إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار، طارت شقة منها في السماء، وشقة في الأرض، ولكنها قالت: «والذي أنزل القرآن على أبي القاسم، ما هكذا كان يقول»^(٥). فهي تصب غضبها في نفسها، فيقف شعرها، وتطير شقة منها في السماء وشقة في الأرض، أما خطابها لمن يسألها هذه الأسئلة المفزعة، فهو خطاب يخلو من العنف، وهكذا كانت السيدة عائشة في أسلوبها التربوي في التعليم مثالا يحتذى وقدوة للمعلم الأصيل، رحمها الله رحمة واسعة ورضى عنها وأرضاها.

(١) البخاري ١٤٧/٣ - ١٤٨٤/١٤٩

(٢) مالك رواية يحيى ٢٣٤

(٣) مسلم ٤٠/٤ - ٤٢

(٤) البخاري ١٧٥/٦ - ١٧٦ (طبعة الشعب)

(٥) أحمد ٢٤٦/٦